ترام القاهرة

دراسة تاريخية ،اجتماعية ،أدبية

تأليف

محمد سيد كيلانى

الكتاب: ترام القاهرة

الكاتب: مُحَمَّد سيد كيلانى

الطبعة: ٢٠١٩

صدرت الطبعة الأولى عام١٩٦٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

كيلانى، مُحَمَّد سيد

ترام القاهرة/ مُحَمَّد سيد كيلانى

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧١ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٥ – ٩٨٩ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٧٠٨ / ٢٠١٩

ترام القاهرة





مقدمة

يعتبر يوم ١٢ أغسطس سنة ١٨٩٦ ، وهو اليوم الذي سارت فيه قطارات الترام تشق شوارع العاصمة ، حدا فاصلا في تاريخ المجتمع القاهري ، إذ انتقل فيه من طور البداوة والتأخر الذي يتمثل في استخدام الحمير والخيل وسيلة للانتقال ، إلى طور الحضارة والمدنية الذي يتمثل في استخدام القوة الكهربائية.

لقد كان سواد الشعب في القاهرة يعاني مشقات هائلة في الانتقال من مكان إلى آخر ، من جراء استبداد أصحاب الحمير والعربات ، وتحكمهم في الناس، وما يوجهونه للجمهور من ألفاظ سافلة ، وعبارات نابية ، حتى أصبحت كلمة حمار ، أو حوذى « عرجي » تعني سوء الأدب ، وانحطاط الأخلاق ، بل و كل صفة قبيحة .

وكانت معظم الشوارع على الفطرة ، كما وجدت منذ مئات السنين، لم تمتد إليها يد الإصلاح، يسودها الظلام بلا ، ماعدا الرئيسية منها فإنها كانت تضاء بغاز الاستصباح . لذلك لم يكن انتقال الإنسان بالأمر السهل ، بل كان عملا شاقا . وإذا حدث فإنه يتم نهارا، ولأمر هام. فماش سكان كل حي في عزلة تكاد تكون تامة عن بقية الأحياء الأخرى.

فلما أنشئ الترام ، حدثت ثورة هائلة في جميع نواحي الحياة القاهرية . فطاب السهر ، وأصبح في متناول الجماهير وبخاصة الشبان الذين كانوا يقضون الليل في الملاهي والمراقص . وبدأت الروابط الأسرية في التفكك ، وضعفت رقابة الآباء على الأبناء .

كما ساعد وجود الترام على اتساع حركة العمران ونشطت الحركة التجارية ، ونشأت المحلات الكبرى لتجارة التجزئة في ميدان العتبة الخضراء، والجهات المجاورة له. وظهرت قيمة الإعلانات التجارية .

ولما سهل على الناس الانتقال عظم امتزاجهم، واشتد اختلاطهم، ومن ثم بدأ الرأي العام يتكون ويصبح خطرا على الجهات الحاكمة. وكثرت الجمعيات الخيرية التي اجتهدت في فتح المدارس.كما كثرت الأندية الثقافية والصحف والمجلات . وأخذت الحركة الفكرية تنمو نموا مطردا .

وقد لعب وجود الترام دورا هاما في الحركة العمالية، كما ترى ذلك واضحا فيما جاء تحت عنوان « الترام والحركة المالية » وترتب على هذا كله اتساع دائرة الحركة الوطنية.

ولما طاب السهرة كثرت المسارح وصالات الرقص والغناء. فحدثت نهضة فنية. اكبر إنشاء الأندية الرياضية المختلف الألعاب و تشكلات فرق وطنية وأجنبية.

وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا كله على الأدب، فظهر الأدب الترامى في الفترة من سنة ١٨٩٦ – ١٩١٤ ، إذ بقيام الحرب العالمية الأولى جدت ظروف ، ووقعت أحداث جسام غيرت بعض نواحي الحياة .

وحينما ظهر الترام ، وجد الأدباء أشياء غريبة في المجتمع لم تكن معروفة من قبل ، فتناولوها شعرا ونثرا . وبمرور الزمن أصبح الكثير منها أمرا مألوفا ، لا يستوقف النظر ، فانصرف الأدباء عنه إلى أشياء أخرى ولدتها ظروف الحرب . واختفت الصحف والمجلات التي كانت تملأ أعمدتها بالأدب الترامى . و ما بقي منها قل حجمه وضاقت مساحته . ثم كانت ثورة سنة ١٩١٩ وما بعدها.

ولم أتوسع في دراسة الأدب الترامي ، لأن التوسع في دراسته يحتاج إلى مجلد ضخم ، فاكتفيت بعرض موجز .

محمد سيد كيلانى

القاهرة في ٢٠ مايو سنة ١٩٦٨



القاهرة قبيل عصر الترام

١٨٩٢ - ١٨٩٦

كان مس طح[١] معمور المدينة يبلغ ٣٨٨٠ فدانا ، وطول شوارعها ٣٥٣ك . م، ٣٤٠ مترا. وعدد سكانها ٣٧٤.٨٣٨ نفسا ، منهم ٣١.٦٥٠من الأجانب . وكان قسم المدينة الأكثر سكانا يشغله١٤٤٥ نفسا للفدان الواحد ، من المساحة المتقدم ذكرها. وفي أقله ٢٩٨ نفسا فقط.

وكان بالمدينة ٥٥.٥٩٧ بيتا ، ٣٧٩ جامعا . ولم تكن شركة المياه تمد من المنازل والجوامع سوى ٤.٣٩٧ بيتا ، وعشرة جوامع . و بقية البيوت والمساجد تستمد مياهها من الآبار ، وبعضها من صهاريج تملأ في أثناء الفيضان ، وبعضها من السقائين منقولة من النيل مباشرة .

وفي سنة ١٨٩٢ تقرر تأليف لجنة للنظر في وضع مشروع مجاري القاهرة .
– المصارف الصحية – من ثلاثة مهندسين : أحدهم فرنسي ، والثاني ألماني ، والثالث انجليزي. فكتبت تقريرا[٢] جاء فيه :

[١ ، ٢] المقطم في ٨– ٤ – ١٨٩٢.

(إن مياه الأقذار في القاهرة تجتمع الآن – لعدم المصارف فيها – في خزانات مقامة تحت المنازل ، فينصرف قسم منها في الأرض ، وينزح القسم الآخر كلما اقتضت الحال ذلك .

وطريقة النزح كانت أبسط الطرق حينئذ ، ولكن لما تألفت[٣] شركة نزح المواد البرازية ، صارت تنزح تلك الخزانات بطلبات بخارية ، تمتص المواد البرازية منها وتلقيها في عربات حوضية مسدودة سدا محكم ، وتنقل تلك الخزانات إلى خارج المدينة).

هذا، وقد عاينت اللجنة الخليج المصري بكل تدقيق ، من مبتدئه إلى منتهاه ، والمنازل جميعها ، من منازل الأغنياء إلى منازل الفقراء ، والجوامع والحمامات العمومية ، وقالت عن ذلك :

« إن المحلات الحقيرة المعروفة بالعشش هي أشد ما يمكن الذهن أن يتصوره من الأماكن المضرة بالصحة».

(وقد شاهدت اللجنة بيوتا يملكها وطنيون متوسطو الحال ، يشتمل البيت الواحد منها على طابقين ومقدمة – واجهة – مزينة أحجاره بالنقوش المحفورة . فقالت عنها من حيث الحالة الصحية ما يأتي : إن هذه

---

[٣] تأسست هذه الشركه سنة ١٨٨٧، وكان مركز إدارتها بشارع عبد العزيز، وكانت تقوم إلى جانب عملها الأصلي بصنع السماد من المواد العضوية وبيعه للمزارعين.

البيوت هي من حيث النظافة والتدابير الصحية في حال يرثى لها ، ويصعب أن يتصور الذهن أسوأ منها).

« وقد شاهدت في بيوت الموسرين أيضا أن المرتفق والمطبخ متحاذيان ، أحدهما بإزاء الآخر . وكلاهما في الغالب قائم في منتصف المنزل. ثم إن اللجنة قد عاينت مرتفقات جامع السيدة زينب ، و الجامع الأزهر خصوصا ، فوجدتها محلا للانتقاد ، لعدم مناسبتها ».

(وقد رأت أن الأربعة مرتفقات العمومية المقامة في جنينة الأزبكية يدخلها في اليوم الواحد تسعة آلاف نفس لقضاء حاجاتهم . وقالت إن ما يتخلل أرض المدينة من المواد البرازية من هذه المرتفقات يبلغ مائة وواحدا وأربعين ألفا من الأمتار الكعبة في السنة الواحدة ، فتشحن الأرض قذارة ، وتفسد مياه الآبار التي يستقي منها المدد العديد من الأهالي) ..

(هذا ، و إن حالا . مثل هذه – خلوا من التدابير الصحية ، تستلزم بالبديهة كثرة عدد الوفيات . فإن اللجنة قد و جدت متوسط تلك الوفيات في القاهرة ٤٦.١٠ في الألف من السكان في السنة ، وقد قابلت الوفيات المذكورة بوفيات ثلاث وثلاثين مدينة كبري من مدن أوربا وأمريكا والهند ، فلم يكن منها ما يتجاوز وفياتها أربعين في الألف إلا مدينة مدراس فقط ، فإن الوفيات فيها ٤٨ في الألف).

(وأما وفيات المدن العظمى في أوربا ، ففي لندن ١٧,٤ في الألف . وفي باريس ٢٣,٥ في الألف ، وفي برلين ٢٣,٧ في الألف ، وفي مرسيليا

٢٩,٧ في الألف . فمن ذا يري أن متوسط وفيات القاهرة يكاد يكون أكثر من وفيات أية مدينة أخرى ، مع أن الطبيعة قد خصتها بإقليم بقرب أن يكون عديم المثل والنظير في الجودة) .

ومع أن هذا التقرير أعطى صورة قبيحة للعاصمة ، إلا أن مجلس شورى القوانين رفض[١] أن يوافق على الاعتماد الذي طلبته الحكومة في ميزانية مدينة ١٨٩٤ كدفعة أولى لتنفيذ المشروع، وقدره أربعون ألف جنيه . ورأى وجوب استخدام هذا المبلغ في تخفيف الضرائب عن الفلاحين. وبذلك ظلت العاصمة محرومة من المصارف الصحية مدة طويلة .

وفي أكتوبر سنة (١٩٠٦)[٢] استقدمت الحكومة مستر كركيت جيمس ، المهندس الذي تولى إنشاء مجارى بومباى و غيرها من مدن الهند ، فدرس المشروع من جديد وعين مراقبا لمصلحة المجارى . وقد بدئ في تنفيذ المشروع سنة ١٩٠٩ ، وانتهى منه في يناير سنة ١٩١٤ ، وتكلف نحو مليون جنيه ..

***

---

[١] المقطم في ٢٠ – ١٢ – ١٨٩٤.

[٢] المقطم في ٢٤ – ١ – ١٩١٤.

وكانت العاصمة[1] تعج بالعشش الحقيرة التي تساعد على نشر الأمراض والأوبئة . مثل عشش البقلى و عشش أخرى غيرها في حي الخليفة وشلبي بالرفاعي. وعشش الأوقاف والمشايخ ، وقد شغلت حي الدوبارة . وعشش الحدادين بالسيوف ، وأخرى بباب الشعرية و حوش الحلواني بالعمري . وعشش على جانبي الترعة البولاقية من مبتداها إلى منتهاها . وعشش الشيخ على ببولاق . هذا غير الأرض الخراب المنتشرة في جميع الأنحاء.

وكان يخترق المدينة : الخليج المصري ، والترعة الإسماعيلية ، والترعة البولاقية . وحينما انتشر وباء الكوليرا سنة ١٨٩٦ ، تألفت لجنة لدراسة أسباب انتشاره ، فوضعت تقريرا[2] جاء فيه :

(... وغني عن البيان أن وجود هذه الترع في مدينة كثيرة الأقذار ، قليلة التدابير الصحية ، خالية من المصارف ؛ لا يخلو من الأخطار والضار في كل آن ، وخصوصا في أوان الوباء . ولما كانت مراحيض المنازل العديدة تنصب في الخليج ، والقاذورات تلقي فيه من كل ناحية ، والناس يغتسلون و يتوضئون فيه فيلوثونه بمكروب الوباء في جهة ، ليشربوا في جهة أخرى بجانبها ، كثرت الإصابات في الجهات المجاورة للخليج ، وكذا في الجهات

---

[1] المقطم في هـ – ٧– ١٨٩٣.

[2] المقطم في ٥– ٩ – ١٨٩٦.

المجاورة للترعة الإسماعيلية . وأبلغ منهما الترعة البولاقية[1] ، لأنها ضيقة ، لا يكاد عرضهايزيد عن مترين . وقد أقيمت عليها أقذر العشش ،

---

[1] حفرت الترعة البولاقية في عهد مُحَّد على ، وكانت تخرج من مكان قرب ميدان التحرير ، يبعد قليلا عن منبع الترعة الإسماعيلية ، ثم حول منبعها إلى مكان في ناحية بولاق أبي العلا، ومن ثم أطلق عليها اسم الترعة البولاقية . وكانت تسير خلف السكة الحديد إلى شبرا ، ومنها إلى غمرة والأميرية و تصب في الترعة الإسماعيلية ، ولا نفشى وباء الكوليرا في صيف سنة ١٩٠٢ ، أصدرت نظارة الداخلية قرارا هذا نصه : يمنع الاستقاء من ماء النيل من المواقع الكائنة بين ساحلي مصر القديمة وروض الفرج ، ثم من ماء القرعة الإسماعيلية ، من منبعها بقرب قصر النيل لغاية كوبري غمرة ، وأن يسد فم ترعة بولاق الذي يبتدئ من الترعة الإسماعيلية ، وفمها الذي يبتدئ من الترعة المخترقة لجزيرة بدران . وتردم الترعة أيضا لعدم تمكن الناس من أخذ مياه منها .

وفي أغلس سنة ١٩٠٢ صدر أمر عال باعتبار الأعمال اللازمة لإقامة فم مستجد للترعة البولاقية من المنافع العمومية . ويبلغ طوله نحو ٧٥٠ مترا . ونص الأمر على أن تنزع ملكية الأراضي التي يستدعيها إجراء تلك الأعمال بالطريقة العادية ، وبحسب القواعد المتبعة ، وتبلغ مساحتها خمسة فدادين ، وعشرين قيراطا وستة عشر سهما ، ملك الأهالي ، واقعة في ناحية منية السيرج بإقليم القليوبية ، بين جسر النيل الملاصق السكة حديد شبرا ، وفم الترعة المقلوبة لحد ضفة النيل .

وبهذا أصبحت الترعة البولاقية تخرج من النيل في جهة منية اسيرج ، وتسير في الشارع المعروف باسمها حاليا ، ثم تنحرف في مكان قريب من شارع أحمد بدوى إلى غمرة فالأميرية حيث تصب في الترعة الإسماعيلية وقبل أن يتم هذا التحويل أي حينها كانت تنبع من بولاق وتسير إلى شبرا ، كان يوجد كوبري أقيم عليها في مواجهة كوبري السكة الحديد الحالي ، ولما أرادت شركة الترام أن تمد خطا من باب الحديد إلى شبرا في فبراير سنة ١٩٠٢، اشترطت الحكومة أن تقوم الشركة بتوسيع كو برى الترعة البولاقية و تقويته ، ولكن لما تغير منهم الترعة وردم ما امتد منها من بولاق إلى كوبري السكة الحديد ، أصبحت الشركة بالطبع – في حل من هذا الشرط (انظر المؤيد في هـ– ٢. ٧ –٨ – ١٩٠٢، والوقائع في ٦– ٨– ١٩٠٢ عدد ٨٦).

وكثرعليها أفقر الأهالي . وكلهم يغسلون و يستحمون ويستنجون فيها ، ويشربون منها . فلذلك اشتد الوباء بينهم ، وفتك فيهم فتكا ذريعا ». وقد استقر الرأي بصفة مؤقتة على تطهير الترع الثلاث ، ومنع الناس من الاستقاء منها.

وكانت ترعة الإسماعيلية تخرج من مكان قريب من ميدان التحرير ، وتسير مارة بباب الحديد إلى غمرة فالأميرية وكانت شواطئ الترعة عند باب الحديد تتخذ كمراحيض (حتى [1]أصبحت قرارة أوضار ، تنبعث منها الروائح الكريهة إلى مسافات بعيدة. ولا يخفى أن هذا المكان هو أول ما يقبل عليه القادمون إلى العاصمة من محطتها ، فلا يصح أن يكون مكانا لقاذورات ، ومصدرا للروائع المضرة بالصحة العمومية) .

وكان شارع رمسيس الواقع من باب الحديد إلى العباسية أرضا زراعية ، لا تصلح لسير عربات الخيل . وكان الخديو حينها يغادر قصر عابدين إلى القبة أو بالعكس يسلك شارع نوبار « الجمهورية » فشارع الفجالة ، فشارع الظاهر ، إلى العباسية . فاقترحت صحيفة الأخبار (١-١٠-١٨٩٦) على شركة الترام أن (ترمم الطريق السائرة بجانب ترعة الإسماعيلية من كوبري الليمون إلى سراى القبة العامرة ، و تغرس الأشجار على جوانبها فتصبح لائقة بموكب سمو الجناب العالي ، وتزيد مصر منتزها

[1] المقطم في ٢٩-١٠- ١٨٩٨.

جديدا ، يتنعم به سكان العاصمة) وقد قامت الشركة فعلا بإصلاح هذه الطريق في صيف سنة ١٩٠٤.

***

أما شوارع القاهرة فكانت من حيث النظافة في حالة برثي لها. جاء في تقرير كرومر[٢] عن سنة ١٩٠٠ ما نصه (يجب أن يعمل شيء كثير قبلها يقال إن شوارع العاصمة من حيث الكنس والرش ، والتبليط والتنوير صارت في حالة مرضية ، وتبلغ مساحة الشوارع في القاهرة ٢.٧٨٠.٧٤٢ مترا مربعا . المرصوف منها بالحصى ١.٣٦١.٠٢٤مترا مربعا. وما بقي من شوارع غير مستوية وجدت منذ مئات السنين . والتجارب جارية في الإسفلت المنضغط ، فإن نظارة الأشغال تنظر في مشروع ما له رصف الشوارع المهمة به ، لأنه أبقى على الاستعمال من الحصى) .

(ومسألة كنس الشوارع [١]؛ مسألة مالية من جهة، وإدارية من جهة . فإن السكان يطرحون فضلات بيوتهم في الشوارع يوميا . فلا يسهل

---

[٢] المقطم في ٦ – ٥ – ١٩٠١.

[١] ما زالت مشكلة نظافة الشوارع تشغل البال . ففي صحيفة الجمهورية (٣– ٢ –١٩٦٨ ما ياتي (تبلغ مساحة المسطحات المطلوبه كنسها ٣٢ مليونا من الأمتار المربعة ؛ منها ٢٤ مليونا في الأحياء الشعبية . أطنان الفضلات تبلغ في اليوم الواحد ٤٠٠٠ مترا مكعبا . النقص في الإمكانات يمكن استكماله ؛ أما الوعي بأهمية النظافة ؛ وضرورة المحافظة على

تنظيف الشوارع مالم يمتنعوا عن ذلك . و يطرح من البيوت يوميا ما يزن ٩٠٠ طنا من الفضلات ، ترفع منها مصلحة الكنس والرش ٣٥٦ طنا كل يوم، وخدمة الحمامات ٢٢٦ طنا ، وما بقي بترك في الشوارع) .

فمن هذا التقرر نرى أن ما كان يترك من الفضلات في الشوارع يوميا هو ٣١٨ طنا، وربما كان أكثر . وللقارئ أن يتصور مدى ما تصبح عليه الشوارع من جراء تراكم الفضلات في عدة أعوام.

فلم يكن – والحالة هذه – انتقال الإنسان من مكان إلى آخر بالأمر السهل . فالشوارع مملوءة بالحفر ، وأكوام الفضلات ، والأحجار . فكان الحمار هو وسيلة انتقال الناس ، وكان للحمير مواقف معينة ، يقصد إليها من يشاء ، منها موقف عند فندق شبرد القديم بشارع الجمهورية ، الغرض منه خدمة السياح الأجانب . أما عربات الركوب التي تجرها الخيل فكانت للأغنياء ، وقليل منها للتأجير المتوسطي الحال . والعربات العامة المعروفة بالأمنيبوس كانت تسير ببطء شديد ولمسافات قصيرة . ولم تظهر شركتا (سوارس) و (الصبان) إلا في سنة ١٨٩٩ ، أي بعد إنشاء الترام بنحو ثلاثة أعوام. وفضلا عما تقدم فإن طاعون الخيل كان ينتشر بين سنة وأخرى ، فيفتك بعدد عظيم منها . وكان الانتقال يتم نهارا ، لأن العربات كانت خالية من المصابيح ، ولأن الإضاءة في الشوارع كانت ضعيفة ، ويستخدم فيها غاز الاستصباح ، ولم تكن في جميع الشوارع . فلذا كان

الوجه لتنظيف العاصمة فهو المشكلة . الشكوى من عدم نظافة سببها عدم الوعي النظافي)

.

سكان كل حي يعيشون بمعزل عن سكان الحي الآخر . فساكن العباسية مثلا لا يفكر في الذهاب إلى مصر القديمة إلا لأمر هام ، وقلما يفعل ذلك . وكان التجار وأصحاب الحرف يتخذون محلاتهم في الحارات التي يسكنونها أو قريبا منها . والتلميذ الذي لا يجد مدرسة في حيه ينصرف – في الغالب – عن الدراسة . وقد ظلت الحالة على ذلك حتى ظهر الترام ، فأحدث بظهوره ثورة هائلة في حياة المجتمع القاهرى .

إنشاء الترام

في أغسطس [1]سنة ١٨٩٣ أعلنت الحكومة عن رغبتها في أن تقوم شركة بمد خطوط للترام في العاصمة .

وفي نوفمبر[2] سنة ١٨٩٤ صادق مجلس النظار على منح امتياز بإنشاء سكة تراموای تسير بالكهربائية في العاصمة لشركة بلجيكية . وقد تقرر أن يكون الامتياز بثمانية خطوط ، تبدأ كلها من ميدان العتبة الخضراء. فالأول يتجه إلى القامة ، والثاني إلى بولاق ، والثالث إلى باب اللوق فالناصرية ، والرابع إلى العباسية عن طريق الفجالة ، والخامس إلى مصر القديمة . والسادس من فم الخليج إلى الروضة ، ثم ينتقل الركاب بزورق بخاري إلى الشاطئ الآخر ليستقلوا قطارا إلى الجيزة ، وهذا هو الخط السابع . والثامن يبدأ من ميدان قصر النيل، و يسير موازيا للترعة الإسماعيلية إلى قنطرة الليمون.

وفي أول أغسطس سنة ١٨٩٦ أجرت الشركة حفلة تجريبية لتسيير أول قطار كهربائي. ففي الساعة العاشرة من صباح اليوم المذكور ، ركب حسين نفرى باشا ناظر الأشغال إذ ذاك ، ومعه بعض كبار موظفي النظارة قطارا أقلهم من بولاق ، مارا بميدان العتبة إلى القامة . وقد اصطف الناس

[1,2,3] المقطم في ١٥-٨-١٨٩٣، ١٥-١١-١٨٩٤، ١-٨-١٨٩٣.

على الجانبين ألوفا وعشرات الألوف ، ليشاهدوا أول مركبة سارت في العاصمة بقوة الكهرباء ، والأولاد يركضون وراءها مئات وهم يصرخون : العفريت ، العفريت .

وكانت المركبة – كما ذكرت للمقطم[٣] (تسرع حتى نسابق الرياح متى خلت لها الطريق ، وتارة تسير رويدا ، رويدا ، أو تقف بغتة عند اعتراض الأولاد والسابلة في طريقها . وقد وقف سائقها، ووضع يده على ميزان تسييرها وإيقافها ، ويصل بينها وبين السلك فوقها عمود من الحديد لإتمام الدورة الكهربائية).

وفي ١٢ من أغسطس المذكور جرى احتفال رسمي بتسيير قطارات الترام وأقامت الشركة زينة باهرة في ميدان العتبة . قالت صحيفة المقطم (١٣-٨-١٨٩٦):

(اشهد أهل العاصمة أمس مشهدا قلما شهد مثله أهالي المشرق ، ولم يخطر على قلب بشر منذ مائة عام ، وهو أن تجرى مركبات كبيرة تقل المئات من الناس ، لا بقوة الخيل ، ولا بقوة البخار ، بل بالقوة الطبيعية التي تسبب البروق والرعود ، بقوة تتولد على شواطئ النيل ، من احتراق الفحم وإدارة الحديد أمام المغناطيس ، ثم تجري على أسلاك منصوبة في الهواء ، والقضبان ممدودة في الأرض ، فتدير عجلات المركبات ، وتجرى على ما يراد من السرعة .

هذا هو الترامواي الكهربائي الذي احتفل أمس بتسييره في العاصمة ، من بولاق إلى القلعة ، احتفالا باهر ! . فا أزفت الساعة الرابعة من بعد الظهر حتى غصت ساحة العتبة الخضراء بالمدعوين من الأمراء والعظماء ، وكبار الموظفين والأعيان ، وفي مقدمتهم النظار ، ومحافظ العاصمة، وقناصل الدول ، ورجال القضاء . وكان المسيو (لاهو) مدير شركة الترامواي يرحب بالوافدين . وكانت مركبات الترامواي واقفة صفوفا في تلك الساعة ، ثم سارت تباعا إلى القاعة بين جماهير المتفرجين الذين انتشروا على جانبي الطريق ، وهم يهتفون سرورا . ثم عادت المركبات بمن فيها من القامة إلى مقر الشركة في بولاق .

وكان قد أقيم سرادق مدت فيه الموائد ، وقدمت المرطبات ، وكل ما لذا وطاب).

وكانت أجرة الركوب ستة مليمات للدرجة الأولى ، وأربعة الثانية . وقد عينت الشركة أربعمائة عامل مصري .

وفي سنة ١٨٩٧ ردمت الشركة الخليج المصري ، ومدت خطا من السيدة زينب إلى غمرة. جاء في تقرير كرومر[١] عن ذلك العام ما نصه : (أفضى مد الترامواي الكهربائي في شوارع القاهرة إلى ردم الخليج، وهو ترعة قديمة ، كانت تمر سابقا في قسم من القاهرة ، وكان يحتفل بفتحها كل سنة عند ارتفاع النيل ، احتفالا يظن أن أصله يمتد إلى أيام فتوحات العرب

---

[١] المقطم في ٤ -٦ - ١٨٩٨.

الأولى . غير أن هذه الترعة أهملت منذ سنوات بسبب الإصلاحات التي تمت في الري ، فصار الاحتفال بفتح الخليج مجرد صورة فقط. ثم إن مصلحة الصحة ألحت على الحكومة مرارا في وجوب ردم الخليج . ولما فشت الكوليرا سنة ١٨٩٦ لم يفتح وقتيا- وكان يظن أن الأهالي يستنكرون ردمه ، وإبطال الاحتفال به . فلذلك لم يشدد في الأمر كما يقتضي. غير أنه ظهر على مر الأيام أن اهتمام الأهالي ببقائه مبالغ فيه . و عليه قر القرار في السنة الماضية – ١٨٩٧ – على ردمه ، وشرع في ذلك حتى امتلأ ، وأصبح الآن سكة عمومية . ولم يبال أهالي القاهرة بردمه أقل مبالاة ، بل إن أصحاب المنازل المبنية على جانبيه ربحوا كثيرا بزيادة أثمان أملاكهم).

وفي صيف سنة ١٨٩٧ حصلت الشركة على امتياز خط يمتد من الجيزة إلى الهرم . كما حصلت في شتاء سنة ١٩٠٢ على امتياز بخط يمتد من باب الحديد ، مارا على كبرى شبرا، فشارع شبرا ، ثم يتفرع منه خط إلى ساحل روض الفرج . وقد تم هذا الخط في ١٩ مايو سنة ١٩٠٣.

وفي سنة ١٩٠٨ سيرت قطاراتها من العتبة إلى الجيزة رأسا عن طريق كوبرى الملك الصالح ، و كوبرى عباس ، بعد أن تم إنشاؤها.

وفي سنة ١٩١٢ احتفلت بتسيير قطاراتها إلى الجيزة عن طريق الزمالك ، بعد الانتهاء من تشييد كوبري أبي العلا ، و كوبرى الزمالك.

وفي سنة **١٩١٣** مدت خط القلعة إلى الإمام الشافعي ، وخط أبي العلا إلى المبيضة بروض الفرج .

وعندما وقعت الحكومة[١] عقد الامتياز للشركة ، لم تخص نفسها بشيء من الدخل . ولم تشترط عليها التخلي عن أملاكها وجميع ما يتعلق بها عند انتهاء مدة العقد ، وقد تداركت ذلك سنة **١٩٠٨** ، فقدت اتفاقا جديدا ، قبلت الشركة بمقتضاه أن تجعل للحكومة **٥%** من إيراداتها تدفع شهريا.

***

وقد وضعت الشركة بالاتفاق مع الحكومة لائحة[٢] خاصة ، وعرضت على مجلس الشورى فناقشها و صادق عليها . وأهم بنودها أن كل محدث غوغاء ، أو سكران ، أو مصاب بعاهة تشمئز منها النفس ؛ يمنع من ركوب الترام .

ونصت المادة الثامنة على أنه لا يجوز وضع شيء من الأشياء على الخط ولا يجوز تسلق العواميد المعدة للحركة الكهربائية أو تعليق شيء عليها ، أو إقامة إشارات كاذبة ، أو المسير قدام العربات السائرة ، أو مرافقها ، أو المسير خلفها ، أو التعلق بها بأي وجه من الوجوه . فاقترح

---

[١] المقطم في ١١-٧-١٩٠٨.

[٢] الوقائع في ٢١-٤-١٩٠٠.

الشيخ محمد عبده أن يزاد بهذه المادة « عبارة بين الشريطين » عقب عبارة (أو المسير خلفها) فقوبل اقتراحه بالاستحسان .

***

ولم تختف عربات الأمنيبوس بظهور الترام ، بل ظلت تعمل في حيز ضيق إلى أن ظهر لها منافس جديد ، وهو السيارات العامة ، وكان ذلك في سنة ١٩٠٨ ، ولكنها لم تكن مريحة لكثرة المطبات ، ولرائحة الوقود الكريهة ، وما ينبعث من دخانه . وقد وصف أحد الكتاب حالته حينما ركب إحدى هذه السيارات لأول مرة في حياته تحت [1]عنوان (أقبح اختراع ظهر في القرن التاسع عشر) فقال (رأيت منذ مدة قريبة أن أركب أوتومبيلا من باب العلم بالشيء ، فقصدت موقفا ، وامتطيت صهوة أحد المقاعد . وما كدت أتبوأ ذلك المقعد حتى حرك السائق قضيبا كان بجانب ساقه ، فسمعت دويا قبيحا ، وشممت رائحة كريهة ، وشعرت بارتجاج في جميع أجزاء جسمي ، فكنت والجالسين كمن اعترتهم حمي . فتجلدت وظننت بادئ بدء أنه ربما كان ذلك لعدم تعود ركوبها .

وأخيرا تحركت فعلا الدخان ، وثار المثير ، وهبت رائحة الغاز الكريهة فاستعذت بالله . وأتي المحصل فطلبت منه تذكرة آخر الخط ، انتقاما من نفسي الأمارة بالسوء، حتى لا تعود تطالبني بركوب هذا المركب الخشن . وفي تلك الأثناء عرجت السيارة على اليسار ، فوقعت على من

---

(١) مجلة الديك في ١٧-٦-١٩٠٨.

كان بجانبي ، ووقعنا على الثالث . ثم ملنا جميعا على الرابع . ولولا الحاجز لذهبنا تحية تقليدنا الأغنياء . ومازلنا على هذه الحال ، وكلما مالت السيارة ذات اليمين ملنا يمينا ، أو ذات الشمال ملنا شمالا ،كأننا في حفلة ذكر، إلى أن وصلت بنا محطة مصر ، فنزلت وأنا ألعن الأوتومبيل و مخترعه وصانعه)

وقد اختفت هذه السيارات بقيام الحرب العالمية الأولى ، نظرا لعدم وجود الوقود أو قطع الغيار .كما انكمشت عربات الأمني بوس لاستيلاء السلطة العسكرية على الدواب والعلف . ولما عادت السيارات العامة إلى العمل سنة ١٩٢٧ اختفت عربات الأمنيبوس ولم يبق منها إلا خط واحد ، بين حي الحسين والشرابية ، ظل يعمل إلى أن توقف سنة ١٩٤٠ .

وعلى الرغم من ظهور السيارات العامة ، فقد ظل الترام سيد الموقف كوسيلة للانتقال ، وبخاصة في خلال الحرب العالمية الثانية ، حين كادت السيارات تختفي من الشوارع .

مجتمع القاهرة في عصر الترام

لا يخفى أن الترام كان وما زال وسيلة انتقال شعبية رخيصة ، متيسرة من الساعة السادسة صباحا إلى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. ولم تكن في ذلك الوقت سيارات كثيرة تزحم الشوارع، ولا عدد كبير من المارة أو الباعة الذين يشغلون الأرصفة . فكان الترام يسير بسرعة فائقة . وكان إنشاؤه نقطة فاصلة في المجتمع القاهري الذي انتقل من عصر البداوة والتأخر مثلا في استخدام الحمير والبغال وسيلة للانتقال ، إلى عمر الحضارة والمدنية ممثلا في استخدام قوة الكهرباء . و بعد أن كان سكان كل حي يعيشون في عزلة تكاد تكون تامة عن سكان الأحياء الأخرى ، بدأوا – بفضل الترام – ينتقلون من حي إلى حي . وأصبح من اليسير على الإنسان أن يسكن في العباسية مثلا ، بينما محل عمله في السيدة زينب . وأمكن التلميذ الذي لا يجد مدرسة في حيه أن يلتحق بمدرسة في حي آخر.

وكان أهل الحي قبل إنشاء الترام (يجتمعون[1] في الدور ، ويتزاورون في القصور . وكان سراقم وذوو اليسار منهم يجلسون في بيوقم للسمر ، فيغشاها العالم ويؤمها الكاتب ، و يقصدها التاجر ، وينتجمها الأديب ، فتجري بينهم الأحاديث ، وتقوم سوق المناقشات . يحدث الحادث

[1] ليالي سطيح المحافظ إبراهيم س ٨٩، طبع الدار القومية سنة ١٩٦٤.

فيخوضون في ذكره ، وتنزل النازلة فيجمعهم الألم على العمل على إزالتها . وتطل رؤوس المشروعات فلا يفتأون يتبينون معارفها ، حتى يقتلوا شئونها بحثا ، و يقنوا على وقائعها جدالا . وينزل بأحدهم المكروه ، فلا يزالون يتلطفون بالسعي له ،

حتى يأخذوا بيده ، وينهضوا به من عثرته . عقدت بينهم الزيارات عرا المودات ، فتراهم كأنهم أهل بيت واحد ، يألم الجار للجار ، ويأخذ الناهض بيد ذي العثار).

أما بعد الترام ، فقد بدأ الناس يميلون إلى الخروج لاستنشاق الهواء العليل في الحدائق . « وأصبح[1] اسم حديقة الأزبكية مرادفا في الأذهان للنزهة والبهجة ، والأنس والسرور . فلا تذكر على السمع حتى يخطر على البال تنزيه الطرف ، وترويح الضدر من عناء الأشغال » (وأقبل الناس [2]على التريض واستنشاق النسيم العليل عصارى كل يوم في جهة روض الفرج، حتى اضطرت شركة الترامواي إلى جعل كل قطر مؤلفا من عربتين) . (وانحلت [3] روابط الأهل والأقارب . ويبس ما بين البيوتات ، فتنا كر الأخوان ، وتدابر الجاران ، وأقفرت المنازل من أنس السمر ، وألف الناس الجلوس في المعتديات ، حتى إنهم ليوحشون في ديارهم لقلة زواره . وأصبح

---

[1] المقطم في ٢٨-٢-١٨٩٨.

[2] المؤيد في ٢٨-٥-١٩٠٣.

[3] نبالي سطيح ص٩٠.

المرء في داره حاضرا كالغائب ، مقيما كالنازح ، يعلم من حال البعيد عنه مالم يعلم من حال القريب منه) .

« وانعدمت[٤] سيطرة الأب على ابنه حتى صار لا يجسر على إزهاق عقوقه لو تطرف عن واجباته ، أو تأديبه لو أقدم على أمر يغاير الآداب.وضاع نفوذ المعلم على تلميذه ، فنشأ الأبناء على غير مذهب آبائهم ، والتلامذة على نفوس لم يهذبها الزجر ، وتؤدبها سيطرة التربية».

(وانتشر [١]التدخين بين تلاميذ المدارس. ومنهم من يتعاطى الخمر، ويقضي الليل في مراقص الأزبكية ومغانيها ، مختلطا بالمومسات والراقصات ، ثم يذهب في الصباح إلى المدرسة شاحب الوجه ، متحدثا إلى إخوانه بما فرط منه في الليل، مفتخرا بما ارتكب من المعاصي ، واقترف من الآثام) .

وكان المعممون من طلبة الأزهر ودار العلوم يترددون على المواخير والمراقص (ويتحمسون[٢] عند سماع ضربات الأوتار ، ونغمات الألحان . ومع ذلك لم يتركوا مغازلة الغيد الحسان ، ومعاقرة بنت الحان . وتراهم يضجون ضجيج الاستحسان إذا رأوا الراقصات بترنحن ذات اليمين وذات الشمال كالأغصان . أما جماعة المطربشين فحدث عنهم ولا حرج . فهؤلاء قد ألفوا التردد على مواخير الفسق ، ولا يرون فيه عارا، بل يرون

---

[٤] الشهامة في ١٣-٢-١٩٥٠.

[١] المؤيد في ١٣-٨-١٩٠٧.

[٢] المؤيد في ٨-١-١٩٠٨.

فيه رياضة للنفس وتفريجا للهم. هؤلاء يشربون الخمر، ويفتخرون بشربها على قارعة الطريق).

واستطاعت المرأة أن تركب الترام ، وتذهب في غيبة زوجها إلى حيث تشاء . قالت صحيفة المقطم (١٩ – ٨– ١٨٩٨) (.... وما يفعله بعض أدبائنا الذين شاركوا الغواني في لباسهن ، والمخنثين في أخلاقهم ، من ارتيادهم الطرقات والمنتديات ، وهم كلما رأوا سيدة عارضوها في طريقها ، وأسموها من بذاءة أقوالهم ما يحمر له وجه كل حر خجلا . وأنكى من ذلك وأشد وقاحة شراؤهم الصور القبيحة وإبرازها أمام كل مخدرة يلتقون بها ، فتأخذ تلك المسكينة الرعدة من هذه السفالة . ولا يزالون في أثرها حتى تلج حانوتا ، أو تركب مركبة تخلصا من شرهم ، فيغربوا إذ ذاك في الضحك . هؤلاء غير رجال وخط الشيب رأسهم ، تجدهم عصارى كل يوم في محطة الكهربائية العمومية ، يركبون القطار ذهابا و جيئة ، وليس لهم من أرب سوى التهكم وإبداء سفالتهم لكل امرأة يجدونها في القطار وحدها ، ولا رجل معها).

وقد اتخذت محطات الترام أمكنة صالحة لتقابل العشاق ، ومغازلة النساء والاحتكاك بهن ومطاردتهن [1](و بلغ الفساد مبلغا لم يشاهد في البلاد الأجنبية، فقد عثروا في يوم واحد على ثلاثة عشر لقيطا في جوانب القاهرة).

---

[1] المؤيد في ٣ – ١٠ – ١٩٠٠

وكان مما يشاهد في الشوارع جهارا نهارا ، أن المرأة إذا سارت.(تمد[٢]إليها الأيادي ، و تمسك بتلك السواعد المكشوفة ، وتداعب بصنوف المداعبة . وان الواحدة لا يكون من شأنها – إذا جرى لها ذلك التعرض – إلا الابتسام) بل كان الرجل (يمسك[٣] من المرأة مكانا مستورا ، ويبوء بالخزي والعار) .

جاء في مجلة المنار (٢٥ – ٩– ١٩٠٠) تحت عنوان « التهتك في مصر وتلافيه» (أظن أنه لا يوجد بلد إسلامي ، أو غير إسلامي، فيه من التهتك ما يدانى ما في مصر ، لاسيما القاهرة . أرى الرجال من جميع الطبقات يتعرضون لكل من عليها مسحة من الجمال ، يغازلونها و يناغونها ، وإن لم يروا منها عينا خائنة ، أو إشارات شائنة . أر من الرجال من يمد يده إلى المرأة المتبرقعة في الشارع، أنما هي حلياته في زاوية بيته . أرى المرأة تطوف في مثل شارع الغورية ، فكأنما هي المراد بقول الشاعر :

كـــــرة حـــــدفت بصــــــوالجة   فتلقفهـــــا رجــــــل رجــــــل

وما ساعد على انتشار موجة الفساد أن خطباء المساجد أخذوا منذ بدء

العصر الترامي يحذرون الناس ، وينذروهم باقتراب موعد القيامة . فعكف

---

[٢] المؤيد في ٣٠ – ١٠ – ١٩٠١.

[٣] المؤيد في ٦–٣–١٩٠٧.

كثيرون على الشهوات ليمتعوا أنفسهم قبل أن يدركهم الموت . قالت صحيفة المنار(٢٦-٧-١٨٩٨)

(إن اعتقاد الناس أن هذا – أي الأمور المحدثة – من علامات الساعة ، و من خصائص آخر الزمان ، قد سهل على غويهم ارتكاب الفواحش ، واجتراح السيئات . وأمسك لسان رشيدهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وقالت صحيفة اللواء (٤ – ٢- ١٩٠٤) (وقف الخطباء – أي خطباء المساجد – بين الجنة والنار ، يحذرون من هذه ، ويوئسون من تلك ، حتى ماتت النفوس وانقطع منها الأمل . فيما يوصل للسعادة من عمل . وخشيت الحرمان في دنياها مما قنطت به في آخرها ، فاسترسلت في شهواتها خوف الغبن في الصفقتين) .

و كتب سائح عربي وفد إلى القاهرة في صيف سنة ١٩٠٧ مقالا [١]جاء فيه :

(هالني مارأيت فيها – أي القاهرة – من التهتك وقلة التمسك بالدين، و عدم احترام الآداب في الطرق والمعاهد العامة ، بما لم أتصور وقوعه في قطر من أقطار المسلمين ، فضلا عن مصر التي هي قلب الأقطار الإسلامية).

---

[١] المؤيد في ١١ – ٨- ١٩٠٧

وقال مصطفى[٢] لطفي المنفلوطي « ... وحدثني من أثق به أن كثيرا من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهدا أمام أخلائهن أن يكن لهم بعد الزواج، أي بعد أن يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت ليلة البناء بها ، أو في صبيحتها كتب الوشاية بها من الأشخاص الذين اتصلت بهم ، وأخلصت إليهم ، فانتهى أمرها في حياتها الجديدة بالشفاء والعار ».

وتناول المنفلوطي[١] أخلاق شباب المصر الترامي، وما أصابها من انحلال وانهيار ، تحت عنوان « الآداب العامة » فقال « يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهروا في هذه الأيام ، واتخذوا لأنفسهم في حياتهم العامة طريقا غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم ، و بمنزلة العلم الذي يزاولونه ، فأصبحوا متبذلين في شهواتهم ، مستهترين في ميولهم وأهوائهم ، ينتهكون حرمات الأعراض ما شاءوا، وشاءت لهم نزعاتهم ، و يعبثون بها في كل مكان ، عبث الفاتك الجريء، الذي لا يخاف مغبة ، ولا يخشى عارا . وأهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغرون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزالن يختلفن إلى مدارسهن ، أو اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن، وينصبون لهن صنوف

---

[٢] النظرات ١٠٧/٢ – التجارية.

[١] النظرات ١٠٧/٢ – التجارية.

الحبائل ، وأنواع الإشراك لاصطيادهن وإسقاطهن في هوة الإثم والعار . وهذا ما أريد أن أتكلم عنه قليلا).

(أصحيح ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن إليكم ، وتهدون إليهن صوركم ليهدين إليكم مثلها ؟ وإذا امتلأت حقائبكم و جيوبكم بصورهن ورسائلهن ، أخذتم تنشرونها في كل مكان ، وتعرضونها في كل معرض ؟) .

(أصحيح أنكم تقفون لهن بكل طريق ، وتأخذون عليهن كل سبيل ، فإذا عجزتم عنهن في الطريق ، أرسلتم وراءهن الرسل في منازلهن يخادعهن ، وربما توسلتم إليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن ، و يداخلهن مداخلة الأصدقاء حتى يجتذبهن إلى منازلكم ؟)

(أصحيح أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة رسائل الغرام ، وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل، تنتظرون خدمها الذين اصطنعتموهم ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها، وربما جلست على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ، ترقبون نوافذها وكواها ، علها تنفرج لكم عما تحبون ؟) .

(أصحيح أنك أصبحتم لا تقنعون في أمر أولئك الفتيات الآنسات اللواتي يقعن في مخالبكم بإفساد أخلاقهن حتى تسجلوا عليهن ذلك الفساد موقعا عليه بتوقيعاتهن ، مستشهدا عليه بصورهن وخطوطهن، لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك ، وتحولوا بينهن وبين التفلت من أيديكم ،

والحياة بعيدا عنكم ، في جو غير جوكم ، وجوار غير جواركم، عذارى أو متزوجات ؟).

(أصحيح أنكم لا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن ، فتشركوهن معكم في شرب الخمر ، وتناول المخدرات ، سائلها وجامدها ، فلا تلبث أن تنتهي حياتهن بما تنتهى به حياة الساقطات؟) .

(أصحيح أنكم فقد تم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة والشهامة فأصبحتم تتجملون للنساء بأخلاق النساء ، و تزدلفون إليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن. وأصبح الرجل منكم لاهم له في حياته إلا أن يتجمل في ملبسه ، ويتكسر في مشيته ، ويرق من صوته ، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان التضعضع و الفتور، ويقضي الساعات الطوال أمام مرآته ، متعهدا شعره بالترجيل ، وبشرته بالتنضير ، و ثناياه بالصقل والجلاء ، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم، وحتى سرى التأنث من أجسامكم إلى نفوسكم ، فلم يبق فيكم من صفات الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب ؟).

(إن كان حقا ما يقولون كله أو بعضه ، فرحمة الله عليكم أيها الفتيان
المساكين ، وسلام على الفضيلة والشرف ، سلام من لا يرجو عودة ، ولا ينتظر إيابا) .

ولم يقتصر الفساد في القاهرة على سكانها الأصليين ، بل جاراهم في ذلك الوافدون إليها من أعيان الأرياف القاصية . مثال ذلك أحمد عياد وكيل قناصل انجلترا وروسيا والبلجيك في الأقصر . حضر إلى العاصمة في أغسطس سنة ١٨٩٨، وتوجه إلى إحدى الحانات، وأفرط في شرب الخمر وتعاطي الحشيش . ثم عاد إلى الفندق الذي كان مقيما به ، فوجد الجو حارا ، فتح الشباك وجلس فيه .فغلبه النعاس ، فهوى إلى الشارع وصدم في نزوله شرفة فكسرت ساقه ، وسقط على رأسه إلى الأرض فتهشمت جمجمته ومات في الحال . وقد نقلت جثته إلى الأقصر حيث دفن هناك في يوم ٢٧ أغسطس.

ولم تقف موجة الفساد عند حدود العاصمة ، بل امتدت إلى البلاد النائية . ففي مدينة الأقصر فتح بعض الأروام عدة حانات . وكان بعض أهل المدينة يصنعون عرقي البلح . ونشأت بيوت الدعارة الرسمية في شارع مجاور لمدرسة الأقباط والحارات المتفرعة منه . كما وجدت بيوت للدعارة السرية . وانتشرت حفلات الزار ، وما تخفي وراءها من عربدة ومجون . كما شاع تعاطي الأفيون والحشيش وأنواع السطل بين شباب المدينة . وكان مولد أبي الحجاج فرصة طيبة للراقصات والمومسات وطلاب اللهو الحرام .

ومن خلال هذه الصورة نستطيع أن نفهم كيف أن رجلا مثل أحمد شوقي، شاعر الخديو، الذي هو نائب أمير المؤمنين ، ووكيل خليفة رسول رب العالمين ، يتعاطى الخمر جهارا نهارا ، و يصرح بذلك في شعر كثير

يغرى القارئ على ارتكاب هذه المعصية . وكذلك فعل حافظ إبراهيم ، وأحمد نسيم ، و امام العبد .

***

ولما استغنى الناس بالترام عن عربات الركوب ، قبل الحوذيون أن تتخذ عرباتهم لأغراض غير شريفة . فكان الرجل يصطحب عشيقته في إحدى العربات إلى الشوارع المظلمة في الجزيرة أو شارع الهرم . كتب سيد على مقالا في اللواء (٢١ – ٥ – ١٩٠٨) جاء فيه

(... وجدت نفسي محاطا بعربات لا شاغل ولا هم لراكبيها إلا تبادل النظرات ، و تجاذب الابتسامات ، والمحادثة بالإشارات ، وقد تساوى الرجل مع المرأة في التأنق . فهذه جالسة بغير إزار ، مزحزحة الذهاب إلى ما تحت الأنف والفم ، مكشوفة الصدر ، عارية النصف الأعلى من الظهر ، إلى أن قال (فطريق الأهرام حفت بالمكاره والمفاسد، وماجت بالمخجلات والمخازى ، مما يشج القلم ، ولا يقوى على تصويره) .

وقد يصطحب الشاب عشيقته ويسير بها في الحارات المظلمة ، فيصيح به الأطفال : سيب النعجة يا خروف .

وظهرت في الصحف إعلانات كثيرة عن أدوية تقوي الباه، وتشفي من ارتخاء الأعضاء التناسلية . مثال ذلك إعلان عن (النفروطون) هذا

نصه[1] (هو الدواء الوحيد الذي شهدت بفوائده أعظم أطباء العالم، وأكدوا أنه يشفي تماما ضعف الأعصاب ، وضعف الباه ، ورطوبة الظهر ، والارتخاء المتسبب عن الإفراط في الجماع ، ويثني أيضا أسباب عدم التناسل ، ويفيد جدا في سائر أمراض المعدة – ثمن الزجاجة ١٤ قرشا). وإعلان بالمعنى المتقدم تحت عنوان إكسير[2] فينوس).

كما ظهرت إعلانات عن أدوية الشفاء السيلان والزهري .

***

وقد انتشر القمار انتشارا عظما بين مختلف طبقات الشعب . قال كرومر[1] في تقريره عن سنة ١٩٠٠ (وعندي أمر آخر جدير بالذكر ، وهو أني على قلة ما أعرفه من أعمال المضاربات في مصر والإسكندرية ، بلغني من أمرها ما أراني أن الناس قد أفرطوا فيها على غير هدى . خربت بيوت كثيرين ، وأمسي غيرهم على شفا الإفلاس . وامتدت العدوى إلى كل طبقات الناس . ولا يخطر ببالي أني أستطيع أن أمنع تكرار هذه الأشياء بأقوال أقولها ، لأن من اعتاد المقامرة لا يصرفه النصح عنها مهما كثر).

[1، 2] اللواء في ٢ ،١- ١٠-١٩١٠.

[1] المتعلم في ١-٥-١٩٠١.

وقال أحمد شوقي[2] :

ضــربت بالمضــاربين الطــبول	حيــث كــل بأمــرهم مشــغول
كــل يــوم يمضــى غــنى وجــيه	وعلــى إثــره ســري جـــليل
ويبيــع الأســاس مــن لــيس بالمثـ	ـرى لكــن حــدا بــه التطفيــل
كــان مــن ثــروة الــبلاد قلــيل	بعــد عــام يــزول ذاك القلــيل
ذهــب النقــد والعقــار جميعــا	باســراة الــبلاد أبــن العــقول ؟
لـو يكـون الغني كما قد زعمتم	كانــت الكيميــاء لا تستــحيل
لــيس بــين الغــني والفــقر إلا	قولـة الشـؤم مـن وسـيط يقـول

***

ولما نجحت شركة الترام ، تألفت شركة بلجيكية أخرى للإضاءة الكهربائية في نهاية سنة ١٨٩٦ وشرعت منذ أوائل سنة ١٨٩٧ تمد المنازل بالتيار الكهربائي ، ولكن الأهالي (وجدوا[1] كثيرا من الحرائق التي لم يهتدوا إلى أسبابها ، أن السبب في أكثرها أسلاك النور الكهربائي التي يمدها في المنازل أناس لا يحسنون هذه الصناعة ، فإن تركيب الأسلاك ومعالجتها أصبح فرعا مخصوصا من الهندسة ، يتعاطاه مهندس كهربائي) .

---

[2] المجلة المصرية في ١٤-٦-١٩٠٠، العدد الثانى .

[1] مجلة الهلال في ١-٣-١٨٩٧.

وفي سنة ١٨٩٨ اتفقت الحكومة مع الشركة على إضاءة الشوارع نظير مبلغ من المال يدفع سنويا . قال كرومر[٢] في تقريره عن سنة ١٩٠٠ « وقد شاع استعمال النور الكهربائي في غضون السنة الماضية – ١٨٩٩ – وأخذ أهل الثروة من المصريين في إضاءة منازلهم بالنور الكهربائي . ووضعت الأسلاك الكبرى والثانوية تحت الأرض ».

***

وكان لإنشاء الترام أثر كبير في ارتفاع أثمان الأراضي والمنازل التي يمر بها . فما كادت الشركة تشرع في مد خط شبرا حتى ظهرت إعلانات في الصحف عن قطع من أراضي البناء معروضة للبيع . وكوسيلة في ترغيب الناس في شرائها نص الإعلان على أنها (على [٣]مسافة بعض أمتار من خط الترامواى) .

وقد ساعد وجود الترام على استبحار حركة العمران ، فتحولت العشش الكثيرة والأرض الخراب إلى بيوت أنيقة على أحدث طراز « وزادت[١] أثمان البقع الواقعة في وسط المدينة ضعفا وضعفين و ثلاثة أضعاف) قالت صحيفة المؤيد (١٣-١٢-١٩٠٣) تحت عنوان (القاهرة) ومستقبلها الزاهر بالعمران»

---

[٢] المقطم في ٦-٥-١٩٠١.

[٣] المؤيد في ٢٦-٣-١٩٠٣.

[١] اللواء في ٢-١٢-١٩٠٦.

(قسمت المنازل الفسيحة وحدائقها للبناء . وهذه جهات التوفيقية والحلمية وقصر الدوبارة ، وما امتد من أطراف العباسية وأقسام الخليفة والسيدة زينب ، وما تجدد في بولاق والجزيرة وشبرا، وما أنشئ من الضواحي التي امتدت إلى مسير نصف ساعة بالقطار البخاري ، أو ساعة بالترام ، على نماء مستمر).

فظهور الترام قد أحدث ثورة هائلة في الحركة العمرانية ، وغير من نظرة السكان إلى المنازل ، (فبعد ما كانوا يألفون السكني في الحواري الضيقة ، وأشرافها يفضلون الإقامة في الأزقة المسدودة ، ويدفعون الثمن الأعلى في آخر بيت منها ، لبعده عن الحركة والضوضاء والغوغاء ، صاروا لا يألفون إلا السكني في الشوارع الواسعة ، ويطلبون المخرج قبل المدخل . فيهجر صاحب الدار الفسيحة داره ، لأن طريقه مسدود ، ويطلب دارا أخرى أقل سعة على شارع ينتهى للفضاء من الجانبين . وكرهوا الحواري الضيقة ، ورغبوا في الإشراف على الميادين، فحصل من ذلك تغير كبير في عمران المدينة ، حتى كادت الأحياء الوطنية التي كانت مقر الأعيان والأشراف تخرب و تنعق على أطلالها اليوم) .

وتبعا لهذا التطور تألقت في سنة ١٩٠٥ شركة بلجيكية لإنشاء حي جديد في القرى الصحية بواحات عين شمس أو هليوبوليس . ولكن هذا الاسم الأخير كان تقيلا على السنة العامة فأطلقوا على هذا الحي اسم (مصر الجديدة) قالت مجلة العجائب (٢٦ – ٤ – ١٩٠٦) « ولما جاء دور الاكتتاب تهافت عليه الصغار والكبار ؛ تهافتا لم يسمع بعد في تاريخ

المضاربة مصر وأوربا وأمريكا ، ذلك أن الأسهم غطيت ٨٣ مرة، منها ٤٥ مرة في الإسكندرية ، وأربع مرات وكسور في إنجلترا وبلجيكا ، والباقي في مصر القاهرة، وبلغت قيمة الأموال التي قدمت إلى الشركة أكثر من مليوني ، ٥٠٠ ألف جـ».

ورئيس مجلس إدارة الشركة إدوار امبين ، وعنوانه شارع الكونفره، رقم ٣٣ في بروكسل . ونائبه في مصر بوغوص باشا نوبار . وقد اشترت الشركة من الحكومة ٢٥ كيلو مترا مربعا، أو ما يعادل ٥٩٥٢ فدانا ، بسعر جنيه واحد للفدان .

ومدينة هليوبوليس[1] القديمة كانت قائمة على ربوة صناعية في الشمال الشرقي لمدينة القاهرة ، تبعد عن ضفة النيل اليمني بضعة كيلو مترات . وكانت من المدن المصرية الهامة ، وبها جامعة تخرج منها بقراط ، وأفلاطون ، و أرسطوطاليس، و جالينوس ، وغيرهم ممن نبغ في السياسة والحكمة والبلاغة والطب . وقد أطلق عليها اليونانيون اسم (هليوبوليس) ترجمة لاسمها القدس الذي عرفت به في عهد قدماء المصريين وهو (با – رع) ومعناه : مدينة الشمس .

وقد اهتمت الشركة بتوفير سبل المواصلات إلى الحي الجديد . فحصلت على تصريح بإنشاء الترام السريع (المترو) وبدأ تسييره سنة

---

[1] المقطم في ١-٦-١٩١١.

١٩١٠ ، كما مدت خطا للترام العادي ينتهي إلى العباسية ، وخطا آخر إلى الزيتون .

وكان الأجر الذي يدفعه الإنسان من ميدان الخازندار إلى مصر الجديدة سبعة مليمات للدرجة الثانية ، وعشرة للدرجة الأولى . ثم زاد بعد الحرب العالمية الأولى إلى عشرة مليمات للدرجة الثانية ، وخمسة عشر مليما للأولى .

وشرعت في تشييد المساكن وتأجيرها . وهذه صورة إعلان عن تأجير مساكن نشرت في سبتمبر سنة ١٩٠٩ «واحة عين شمس – هليوبوليس » (للايجار بجانب الجامع الجديد و الترامواي الذي سينشأ قريبا ، بيوت على الطراز التركي ، مؤلفة من ثلاث غرف ، أو أربع ، وفسحة و فرن . الأجرة من ٦٠ إلى ١٤٠ قرشا).

وفي ٢– ١– ١٩١١ احتفلت[١] الشركة بافتتاح مسجد مصر الجديدة ، برئاسة الأمير حسين كامل ، نائبا عن الخديو عباس ، وبحضور جمهور من كبار العلماء والموظفين والأعيان الوطنيين والأجانب وبعض السياح والسائحات . يتقدم الجميع إسماعيل سري باشا ناظر الأشغال والحربية ، وحشمت باشا ناظر المعارف، وأحمد شفيق باشا مدير عموم الأوقاف ، والمستر جراهام بل مستشار الداخلية ، و قاضى مصر ، وشيخ الأزهر . وبعض النظار ووكلاء النظارات .

---

[١] المقطم في ٢–٦–١٩١١.

والجامع – كما جاء وصفه في المقطم – بناء فخم ، قائم على ١٤ عمودا من المرمر ، طلق الهواء ، جميل البنيان ، كامل النظام ، منار كله بالمصابيح الكهربائية . وقد أقيم بجانبه سرادق جلس فيه المدعوون ، وبعد أن فتحت الحفلة بتلاوة أي الذكر الحكيم، وقف بوغوص باشا نوبار وألقي خطبة باللغة الفرنسية ، جاء فيها ما ترجمته :

كان غرضنا إنشاء مدينة صحية في ضواحي القاهرة وسط الصحراء جاف هواءها ،نجمع لها كل ما يلزم من أسباب المعيشة والرفاهية ، ونتخذ فيها كل ما يطلبه أهلها من الاحتياطات الصحية ، ونصلها بالقاهرة بقطارات سريعة تمكن سكانها من الوصول إلى مقار أعمالهم في بضع دقائق .

ومع أن العمل في هذا البلد لم يبدأ إلا من نحو أربع سنوات ، فإنه قد ظهرت في عالم الحقائق مدينة عصرية ، تسطع في أرجائها شموس الكهرباء . وأنشئت فيها المعدات الصحية على أحسن طراز ، ورفعت فيها القصور السامقة ، وتوفرت فيها أنواع الرياضات . وبفضل إيجاد القطار السريع ، أصبحت وليس بينها وبين القاهرة إلا مقدار ربع ساعة من الزمان ، واجتمع لهذه المدينة الحافلة بالسكان ما يربو عدده على الثلاثة آلاف. وهذا العدد يزداد كل يوم زيادة مطردة. ونظرا إلى أن أغلب سكان مصر الجديدة – كما يسميها العامة – هم من المسلمين الذين أحلهم في هذا البلد ما وجدوه فيه من أسباب الراحة ، رأينا أن نقدم لهم

شيئا أجل من هذا كله ، فأقمنا لهم مسجدا يؤدون فيه فرائض دينهم ، وهو المسجد الذي نفتتحه اليوم ، وتجاوزنا عن إدارته إلى ديوان الأوقاف .

وكدعاية للحي الجديد ، أقامت الشركة مدينة الملاهي أطلقت عليها اسم(لونا بارك)، أي وادي القمر . قالت صحيفة المقطم (١٧ –٦– ١٩١١) فتح هذا الوادي أمس ، وتقاطرت إليه جماهير المدعوين من أهل العاصمة ألوفا . وظلت وسائط النقل على اختلاف أنواعها تنقلهم من العشاء إلى قرب نصف الليل . وكان مدخل ذلك الوادي وجوانبه مكللة بالأنوار الكهربائية تكليلا جميلا ، ومزينة بها زينة تأخذ بالأبصار . فانتشر المدعوون فيه زرافات ووحدانا ، وقضوا جانبا طويلا من الليل وهم يتنقلون من فرجة إلى فرجة ، و من لعبة إلى لعبة ، و من تسلية إلى تسلية . فكان قوم يمشون في كهوف وهم يهتزون اهتزازا شديدا ، بقوة خفية ، قيل إنها الكهربائية ، فيضحكون من رؤية بعضهم البعض، و يضحكون سائر الناظرين إليهم . وقوم يمشون على شبه نول الحائك ، فيتحرجم تارة إلى الأمام، وطورة إلى الوراء، كأنهم يرقصون وما هم براقصين . وقوم يمشون أمام مرايا مستوية ومقعرة و محدبة ، على أشكال مختلفة ، فتريهم صورهم مشوهة تشويها مضحكا . فتارة يكونون قصارا صغارا كالقزم ، وتارة طوالا كبارا كالجبابرة ، وتارة طوالا من أوساطهم إلى رءوسهم ، وقصارا من أوساطهم إلى أقدامهم ، وتارة بالعكس. وتارة طوال الوجوه والقامات ، دقاقها . وتارة قصارها وعراضها وغلاظها . وهم كلما مروا أمام مرآة ضحكوا وقهقموا ، وأضحكوا الذين حولهم أيضا).

(وقوم يقفون على ألواح مستديرة، تدور بقوة شديدة ، فإذا بعدوا عن مركزها قليلا انقذفوا عنها بالقوة الدافعة عن المركز ووقعوا خارجها ، فيضحكون ويضحكون . وقوم يصعدون إلى قمة دكة عالية ، ويركبون هناك قوارب تنحدر بهم على جانب الدكة انحدارا عظيما إلى بركة ماء أو بحيرة صغيرة في أسفلها، حتى يخيل إلى الناظرين أن القارب غارق بهم لا محالة ، ولكنه إذا وصل إلى الماء سار على وجهه بسرعة فائقة مسافة قصيرة ، ثم أوقف عند آخر البركة وعاد منها ، وهلم جرا).

وقوم يركبون قطارات تسير على سكك حديدية سيرا سريعا . فتطلع بهم تارة ، و تنزل أخرى على جوانب وقمم رابية قائمة على حافة الوادي ، وهم يصيحون بأعلى أصواتهم ابتهاجا بتلك الحركات الغريبة ، وطربا بسير يتوهم الناظر إليه أنه كله خطر ، وما فيه من خطر) .

(وقوم يركبون زوارق تسير بهم في قنوات بعضها معقود ، و بعضا مكشوف ، وقوم يطلعون و ينزلون على سلالم متحركة إلى أعلى وأسفل ، و يمنة ويسرة . فكأنهم قد أصيبوا برعدة شديدة ، حتى يضحك منظرهم التكلى في طلوعهم و نزولهم عليها . وقوم يزلقون ويتزحلقون في المزلق الواسع العظيم المعروف عند الإفرنج بالسكاتنج رتك. وقوم يجلسون في قهوات ذات طبقات ، يتناولون المبردات والمثلجات ، و ينظرون إلى تلك الجماهير ، ويشنفون الآذان بسماع الألحان) .

« وقد أدهشت هذه المناظر الجمهور ، حتى كان بعضهم يقول إنهم في واد مسحور . وكان آخرون يقولون إن الانجليزي الذي أنشأ هذا الوادي نقله برمته من أرلز كورت بلندن ، فأرانا وادي القمر في عين الشمس مصر » .

وقال أحد شعراء ذلك المصر تحت عنوان (وادي القمر):[1]

ركبت الترام عشاء فراح ... يجد المسير لوادي القمر

ولما وصلت هناك رأيت ... سنا الكهرباء يقر النظر

ملاه نسر وتبعد عن ... نفوس الحضور دواعي الكدر

فمن بركة ملئت بالضياء ... على شاطئها يطيب السمر

ومن زورق نازل من عل ... وآخر ينساب فوق النهر

[1] المقطم في ٢٢-٢-١٩١٢.

ومــن ســلم صــاعد هــابط كــأن مواطنــه مــن أكــر
ومـن داخـل الغـار نفـخ الهـوا يعــري محاســن ذات الخفــر
ومــن وعــر منحــدرات الجبــال يمــر القطــار كلــح البــصر
ومــن دورة بالرحــى تقــذف ال ذيــن عليهــا كقــذف الأكــر
ويغـرب في ضـحكه مـن أتي ال مــرايا وأبصــر تلــك الصــور
فطفــت الحــال مــع الطــائفين شــبيبة مصــر منــاط الفــكر
خفــاف مــلاح يلــوح علــيهم ذكــاء الفــؤاد وسـيما الحــضر
تروقـــك في الـــوح روحـــاتهم فـــأنا فـــرادى وآنا زمـــر
مــدار الحــديث إذا مــا التقــوا بلادهمـــو غرســـها والتـــمر
وبينمـــا أنا فـــرح معجـــب بمـا مـن خلالهمـو قـد ظـــهر
إذا بفـــــتى وإلى جنبـــــه أوربيـــة مـــن ذوات الحـــور
وكــانا مــن الســكر في حالــة حــديث الغــرام بغــير حــذر
هـــي الخمـــر ســـورتها دائمـــا تمثــل خــان رعــاع البشــر
وهـــم بهـــا وهـــي همـــت بـــه تزيــل الحيــا وتزيــد الـــهذر
ومـــا برحـــا هكـــذا هكـــذا عناقــا ولمــا و كـــرا وقـــر
إلى أن رأيتهـــا يممـــا ومـــا برحـــا يرمقـــان شـــذر
فـــدارا قلـــيلا ومـــن دونهـــا مكـان القباقـب ذات البـكر
وقـــد أسمـــوه نكـــات أشـــد هـوى فـإذا كـل فـرد صقـر
أتأمـــل مصـــر يكـــون علـــى على الحر من و خزه بالإبـر

وهــل مثــل هــذا يناضــل عنهــا	يـدي مثـل هـذا قضـاء الـوطر؟
فيأيهـــا الـــنشء إن العـــلا	ويفحـــم إدورد أوكتشـــنر؟
خيــار الرجــال بهــذا الوجــود	بكـد النهـي وبحسـن السـير
يقـــول لـــه اوتقـــول لـــه	همـو الخـير ون زمـان الصغـر
تنـــال الشـــعوب دســـاتيرها	بخـير الفعـال وخـير الأثـر

وقد أتاحت الشركة فرصة تمليك المساكن الراغبين في ذلك . فكانت تبيع لهم الأرض بسعر المتر أربعين قرشا، وتقوم هي بالبناء على أن يسدد المالك ثمن الأرض والبناء ، على أقساط ، بفائدة ٣٪ للارض ،٥% للبناء. ونتج عن ذلك أن زاد عدد السكان فبلغ ٤٧٢٩ في سنة ١٩١٢.

وفي يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ (احتفلت[١] الشركة بنصب الأثر المقام تذكارا للطيار الفرنسي لويس بيير موليار ، وللطيارين العربيين : ابن فرناس والجوهري ، السابقين إلى اكتشاف صناعة الطيران من أهل الشرق والغرب. وقد حضر الاحتفال رئيس النظار والنظار ، وكبار الموظفين والأعيان . ووضع على وجهي العمود من اليمين إلى اليسار صورتان لموليار وهو برقب طيران الطيور ، وما مصنوعتان من البرنز أيضا ، ونقش على وجه العمود من الوراء بالعربية الأبيات الآتية :

[١] المقطم في ٢٦ -٢-١٩١٢.

إن يركب الغرب من الريح مبتدعا	ما قصرت عن مداه حيلة الناس
فإن للشرق فضل السبق نعرفه	للجوهري وعباس بن فرناس
قد مهدا سبلا للناس تسلكها	إلى السماء بفضل العلم و الباس

***

وفي سنة ١٩٠٦ فكرت شركة الدلتا في إنشاء حي جديد في معادى الخبيري ، عرف بحي المعادي . قالت صحيفة للقطم (٢٠ – ١ – ١٩١٠)

(أنشئت – أي المعادى – على النمط الأوربي . فيها المباني الجميلة الحديثة، والقصور الشاهقة المزخرفة . ومعظم هذه المباني على الطراز الإنجليزى ، مسقوفة بالآجر – القرميد – وتخللها الشوارع النظيفة الواسعة المرصوفة بالمكدام الأبيض ومنتزهات بديعة حاوية لكل أنواع الأزهار والرياحين . وأرض تلك المدينة منبسطة وكأنها بساط أخضر ، بما فيها من الخضر والزهور . وتخترقها قناة مجرى فيها ماء النيل . وأمامها البحر الكبير . وقد وضعت عليه شركة الدلتا وابورا لجر المياه منه إلى المنازل ، وآخر للكهرباء . و كل منازلها تنار الآن بالكهرباء ويشرب ساكنوها من ماء النيل العذب ، يجري إلى منازلهم بالمواسير ، وأنشأت جنينة غناء ، مساحتها ١٧ فدانا ، فيها كل أنواع العنب و باقي الأثمار ، تحيط بها أشجار السرو الطويل . وأنشأت طريقا واسعا على النيل من المعادى إلى مصر ، ورصفتها بالمكدام الأبيض . وقد بلغ طول هذه الطريق ثلاثة كيلو مترات .

وبوجود الترام استطاع الكتاب والشعراء أن يجتمعوا في مقاهي الأزبكية وحاناتها . فنشأ بينهم صدام ، و تولدت خصومات عنيفة ، ظهر أثرها في نظم من قصائد الهجاء ، وشعر النقائض .

وازداد عدد النشالين الذين يحتكون بركاب الترام ، ويسلبون النقود والساعات . قالت صحيفة اللواء (٢-١٠- ١٩١٠) تحت عنوان (الركوب من الشمال) (كثرت شكاوى الجمهور من ضياع بعض أشياء سرقت منهم أثناء ركوبهم مركبات الترام . ثم اتضح أن اللصوص إنما أولئك الأولاد الذين يتعلقون من جهة الشمال ، بحجة اللعب أو الركوب ، حتى إذا صادفوا غرة من أحد الركاب ؛ سلبوا منه ما تصل يده إليه) .

الترام والحركة التجارية

لما أصبح في قدرة ساكن القاهرة الانتقال من مكان إلى مكان في أي وقت شاء بفضل وجود الترام ، وكانت الخطوط كلها تبدأ من ميدان العتبة، أو تنتهي إليه ، فقد نشأت في حي الأزبكية المحلات الكبرى لتجارة التجزئة التي نشاهدها اليوم . وبلغ من[1] تزاحم التجار وأصحاب الفنادق و المطاعم والمقاهي والحانات أن ارتفع سعر المتر من أرض البناء في حي الأزبكية إلى ستين جنيها سنة ١٩٠٥ وإلى تسعين في الموسكي .

(ومن المحلات التجارية التي افتتحت في الأزبكية عقب تسيير الترام :

محلات آل؟[2] مدكور ، في ٧ – ١٢ – ١٨٩٦ ، وقد زارها الخديو عباس وطاف أركان المحل ، وشاهد أنواع البضائع في كل قسم . وقال لحسن بك مدكور : إن هذه أول مرة يدخل فيها خديو مصر محلا تجاريا في القطر المصرى . وأنه قصد بهذه الزيارة التشجيع على تنمية روح التجارة الوطنية في البلاد).

---

[1] المؤيد في ١٤–١٠–١٩٠٥،٨–١٢–١٨٩٦.

ومحلات يوسف وأحمد الجمال في الموسكي سنة ١٨٩٦ ، وقد اشتهرت بتجارة المنسوجات .

وقد أدرك الأجانب ما ينتظر حي الأزبكية من التقدم والرواج والازدهار بعد وجود الترام . فبادروا إلى إقامة المباني الفخمة ، والمتاجر الأنيقة . قال أحد الكتاب في صحيفة المؤيد (١٦ – ١٠ – ١٩٠٠).. وحسب المصري إذا وقف في ميدان الأوبرا الخديوية والعتبة الخضراء ، باهتا متأملا، متألما إن كان من ذوي الشعور، على ما وصلت إليه الأجانب في بلادنا من التزاحم في الحياة والحركة التجارية ، ورفع بصره إلى مبانيهم الفاخرة الفخمة ، و بيوتهم التجارية الجميلة الأنيقة التي تأخذ بمجامع القلوب رونقا وبهاء ، وتستميل النظر بهجة و تركيبا و تر تيبا ، وقارن بعدئذ بينها وبين وقفته في الغورية ، والأشرفية ، وخان الخليلي ، وانقلاب المناظر من أبدع إلى أقبح ، وتزاحمهم –أي المصريين– في التقدم إلى الوراء، والمنافسة في الفقر والتأخر .

وقالت مجلة المنار (١٢– ٤ – ١٨٩٨) «لو أن أحدا طار في منطاد ، ونزل في الأزبكية وطاف فيما يقرب منها، يقول إن هذه المدينة هي أخت باريس أو بنتها ».

***

وقد ظهرت قيمة الإعلانات في الصحف والمجلات والملصقات ، منذ وجود الترام . فالتاجر يعلن عن بضاعته ، وهو على يقين بأن الناس

سيفدون عليه من جميع أنحاء العاصمة ، بعد أن سهل لهم التزام سبل الانتقال. فمثلا رأينا في صحيفة المقطم (١٨ – ١٢ – ١٨٩٩) إعلانا عن محل مرطبات ، هذا نصه (إن محل سبانس تجاه حديقة الأزبكية ، مستعد لبيع كافة أصناف المبردات الخالية من الغش ، المرشحة بمرشحات باستور " ومن يتعاطاها يسر بها كل السرور).

والنص في الإعلان المتقدم على أن المبردات مرشحة بمرشحات باستور ؛ كان له أهميته في ذلك الوقت . فقد مر بنا أن معظم مباني العاصمة لم يكن يستمد ما يلزمه من المياه من الشركة ، بل من السقائين الذين يجلبونه من النيل مباشرة أو من الآبار ، مما يعرض صحة الناس للمرض . فقطعا لكل شك، أعلن صاحب هذا المحل أن مياهه مرشحة ، أي أنها خالية من الشوائب والجراثيم .

وهذا نص إعلان آخر نشر في المقطم بتاريخ (٨ – ١٢ – ١٨٩٨).

وأعلن صاحب حمام شنيدر الشهير في بناء حليم باشا بالأزبكية أنه فتح أبوابه من أول ديسمبر الجاري لطالبي الاستحمام فيه نساء ورجالا ، في جميع ساعات النهار ، وفي هذا الإعلان من الإغراء ما لا يخفي .

وقد اتخذت عربات الترام نفسها وسيلة للدعاية والإعلان . فمثلا [(١)]حدث أن وطنيا فتح مدرسة في سنة ١٩٠٣، فاستأجر إحدى المركبات الكهربائية وزينها بالورود والرياحين ، وعلق بها لوحات تحمل اسم مدرسته و عنوانها ، وسيرها في جميع الشوارع التي تمتد فيها خطوط الترام ، إيذانا بافتتاح تلك المدرسة.

و بعد تسيير الترام بعامين ، أي في سنة ١٨٩٨ ، تم افتتاح البنك الأهلي . وقد اتفق على شروط إنشائه المستر بار المستشار المالي بالنيابة عن الحكومة المصرية ، وبين بعض رجال المال الإنجليز . وتقرر أن يكون شركة مساهمة ، رأس مالها مليون جنيه ، مقسمة إلى مائة ألف سهم ، سعر الواحد عشرة جنيهات .

وتعين بالمر[(٢)] مديرا للبنك بمرتب ٤٠٠٠ ج.م في السنة ، بعد أن انتهت مدة خدمته في الحكومة مستشار مالي ، وكان يتقاضي ٢٠٠٠ ج.م

[(١)] المؤيد في ٣٠-٩-١٩٠٣.

[(٢)] قالت صحيفة المؤيد (١٩ – ٧ – ١٨٩٨) (بلغ به – أي بالمر – التطاول على هيئة مجلس النظار ، وعلى مقام الخديوية أيضا، أن أخذ على النظار عهدا أن لا يقابل الجناب الخديوي أحدهم أو كلهم ، دون أن يكون ذا نصيب في هذه المقابلة ، ليتمكن من الرقي عليهم ، كما هو مأمور بذلك . وكان لا يبالي أن يفرط منه كلام غير لائق مع بعض النظار ، الذين كان يتهمهم بعدم صدق الولاء إذ ذاك الاحتلال ، وهو الذي سافر إلى لندن وعقد شروط بيع الدائرة السنية بصفته وكيلا عن الحكومة المصرية. وعقد شروط إنشاء البنك الأهلي مع مشتري الدائرة أيضا ، بصفته وكيلا عن الحكومة ، في الوقت الذي كان يتفق فيه مع المؤسسين على أن يكون مديرا لهذا البنك بالشروط التي تقررت بينهما ، مات بالمر في أسوان سنة ١٩٠٦.

في السنة . و تعين وكيلان انجليزيان ، وأعضاء مجلس الإدارة وعددهم خمسة عشر عضوا ، كلهم من الأجانب .

وقد خولت الحكومة للبنك حق إصدار العملة الورقية ، فارتفعت سمعته ، وأقبل الناس على الاكتتاب في أسهمه . وقد غطى رأس المال **٣٣** مرة في ظرف ساعات قلائل ، فبلغ المال المكتتب **٥٣٣.٩٤٧٥** سهما ، في حين أن الأسهم التي أعلن عنها كانت **١٦** ألفا فقط ، فرد النقود إلى أصحابها ، واحتفظ بنسبة **٣%** من الأسهم لكل فرد. أي أن الذي اشترى مائة سهم ، حفظ له ثلاثة ، ورد المال الزائد . جاء في تقرير كرومر[١] عن سنة **١٨٩٨** ما نصه (عملة الورق – رخصت الحكومة في إنشاء بنك أهلي، ومنحته امتيازا بإصدار ورق يتعامل به الناس كالدراهم ، وتدفع حين الطلب . وتكون إدارة إصداره مستقلة عن أشغال البنك الأخرى ،.

(أما الأوراق فلا تكون واجبة القبول ، ولكن الحكومة تقبضها . وقد ورد في نظام البنك أن نصف قيمة الأوراق المتداولة يبتاع به أوراق مالية تصادق الحكومة عليها . وأما النصف الآخر فيجب أن يكون ذهبا على الدوام).[٢]

---

[١] المقطم في ١٤ – ٤ – ١٨٩٩

[٢] المؤيد في ٢٠ – ٥– ١٩٠٣ .

وسبق أن رأينا كيف نشطت حركة العمران بعد وجود الترام . فأقبل كثير من الوطنيين والأجانب على الاتجار في مواد البناء، وقامت مصانع الطوب والبلاط . ووجد عدد كبير من المواطنين موردا للرزق ، كالنجارين و الحدادين والبنائين ، ومركبي البلاط والأدوات الصحية والكهربائية والبوابين . ومن ذلك التاريخ بدأت هجرة أهل الأقاليم إلى العاصمة تسع يوما بعد يوم .

ولما أنشأت الشركة خط شبرا، والساحل في سنة ١٩٠٣، كتب مندوب المؤيد ما نصه (أحسنت شركة الترامواي التدبير بإنشاء هذا الخط ، لتسهيل النقلة على كل من له علاقة عمل بتجارة الساحل ، التي هي من أوسع المتاجر ، وألصقها بضروريات الحياء في مصر القاهرة . وقد اتفق لنا أثناء مرورنا ذهابا في طريق شبرا أن شاهدنا جماعة من اليونان دائبين على العمل في تلكك الجهات الخلوية ، لإنشاء المتنزهات والقهاوي . فقلنا هكذا تكون الاختراعات رائدة العمران في كل مكان) وقد بدأ كثيرون يستغلون أموالهم في شراء الأرض وتقسيمها وعرضها للبيع . أو إقامة المباني وتأجيرها ، على نطاق واسع لم يعرف من قبل .

الترام ساعد على تكوين الرأي العام

لما كثر اختلاط سكان العاصمة، وعظم امتزاجهم أثر إنشاء الترام، بدأ الرأي العام يتكون ، وبات له خطره وتأثيره على الأجهزة الحاكمة.

وأول ما نلاحظ ذلك حينما نشبت الحرب بين الدولة العلية واليونان في أبريل سنة ١٧٩٧ ، فقد كان [١] المصريون يسهرون الليالي الطوال، منظرين بتشوف وشغف ورود أنباء القتال، وقد عم الفرح بانتصار الدولة، وتشكلت لجان لجمع التبرعات لإعانة الجيش العثماني، بلغت ٤٥ لجنة في العاصمة ، ٣٠٠ في سائر جهات القطر. وتشكلت لجنة للسيدات المصريات برياسة حرم رياض باشا. قالت صحيفة المؤيد (٢٩-٥-١٨٩٧) "…. وأمل هذا أول عمل خيري اشترك في القيام به، والنضافر عليه السيدات المصريات مع الرجال . وإنه ليسرنا أن تنمو فيهن فكرة مشاركة الرجال في مهام الأعمال، حتى يعلمن أنهن نصف الهيئة الاجتماعية التي يجب أن تساعد النصف الآخر فيما يخصه، في كل ما يعود بالخير العام على بني الإنسان ، أو تؤدي به فريضة وطنية مليئة واجبة الأداء على الخاص والعام".

ولم يقتصر جمع التبرعات على الأغنياء ومتوسطي الحال، بل رؤى أن يشارك فيها الفقراء، كل حسب طاقته. فوضعت صناديق مغلقة في

(١) من خطبة لمصطفي كامل – المؤيد في ٨-٩-١٨٩٧

المساجد، فأقبل الفقراء – في حماسة منقطعة النظير – على إلقاء النقود فيها . وبذلك ساهمت الأمة على اختلاف طبقاتها في هذا التبرع، وكانت مظاهرة وطنية رائعة وأفتي قاضي مصر وعلماء الأزهر أن مساعدة الدولة في تلك الحرب تعتبر من الفروض العينية على كل مسلم.

ولما اقترب عيد الجلوس السلطاني، وكان في ٢١ أغسطس سنة ١٨٩٧ احتفلت به الأمة المصرية احتفالا لم يسبق له مثيل، ولم تخف دلالته على الرجال الاحتلال . فمنذ صباح ٢٨ أغسطس أخذ السكان يجدون في إقامة الزينات، لا فرق بين غني وفقير هذا أمام بيته ، وذاك أمام حانوته، حتى لا يكاد الإنسان يرى في جميع الشوارع والحارات إلا أعلاما تخفق فوق جدران المساكن والمحلات التجارية. وأقيمت حفلات ساهرة في حديقة الأزبكية وصالات الرقص والغناء والمسارح، غني فيها المغنون ، ومثل الممثلون، ولعب الحواة . وقد انقلب الليل نهارا من ذدة الأضواء، وأطلقت المدافع تحية وابتهاجا بالعيد، وكذلك السهام النارية. وسيرت شركة الترام مركباتها حتى الساعة الثالثة صباحا، وأقيم احتفال كبير في الأزهر ، حضره بضعة آلاف من الطلبة والعلماء، وألقيت فيه الخطب، وأنشدت القصائد . قالت صحيفة المؤيد (١-٩-١٨٩٧) " احتفلت الأمة المصرية أمس بشعائر ذكرى عيد الجلوس الشاهاني المجيد، احتفالا باهرا. ولم يسبق لمصر أن تحتفل بمثل هذا الاحتفال قبل العام الحاضر فهو إذن بمثابة صوت عام من الأمة المصرية، يعلن دوام ارتباطها وتعلق أميالها الخالصة بجلالة المتبوع الأعظم من جهة. وإعلان بحجة دامغة على

الاحتلال أنه أجنبي غاصب، تجفوه القلوب، وتتخطاه الأميال، ومن جهة أخرى"

وقالت صحيفة الوطن القبطية (٣-٩-١٨٩٧) تحت عنوان " معني احتفال المصريين" " لم يسبق في سنة من السنين أن المصرين احتفلوا بعيد الجلوس الحضرة السلطانية بمثل احتفال هذه السنة. فكان يحل العيد ويمضي دون أن يهتم أحد به، غاية الأمر كان أولياء الأمور يحتفلون ببعض احتفالات رسمية . أما هذه السنة فتبينه المصريون إلى ارتباطهم بالحضرة السلطانية، واحتفلوا في جميع أنحاء القطر المصري، وتنافسوا في إظهار الولاء لجنابه الرفيع بإقامة الزين الباهرة من تلقاء ذواتهم . وهذا الاحتفال هو بمنزلة تظاهر ضد الاحتلال، وبمنزلة إحكام العروة الرابطة مصر بالدولة العلمية. فالإنجليز كانوا يتمنون فك هذه العروة، حتى ينظر المصريون إليهم وحدهم، ويعولوا في الأمور عليهم .

ولكنهم – أي الإنجليز – نهجوا في سياسة أتت على غير مرامهم. فإن المصريين رأوا أن غاية سياستهم ابتلاع مصر، فاختصوا بكل وظيفة رفيعة، وصار لهم النفوذ الأكبر والشوكة العظمي في جميع المصالح، فلا يمكن أن تحصل كلية ولا جزئية إلا عن أمرهم هذا فضلا عن عدم الوفاء بالعهود التي تعهدوا بها منذ خمسة عشرة سنة ، ومن أنه إذا استتب الأمن الداخلي، وصارت مصر آمنة على حدودها ، وانتظمت أمورها ، انجلوا عنها ، وقد تم كل هذا ، ولكن لم تمض سنة إلا أحدثوا مسوغا للبقاء ".

والذي يهمنا في هذا المقام، هو إجماع الصحف العربية والإفرنجية، الإسلامية والقبطية ، على أن هذا الاحتفال لم يسبق له مثيل . وعلى أن سكان القاهرة قد تنبهوا في هذا العام بالذات إلى ما يعنيه احتفالهم بعيد الجلوس السلطاني . وعلى أنهم تقاطروا على أمكنة الاحتفالات حتى اكتظت بهم دور التمثيل وصالات الغناء، والمقاهي ، وأمكنة اللهو. ولاشك في أن وجود الترام قد ساعد على قيام هذه الاحتفالات وإعطائها رونقا وبهاء، تلك الاحتفالات التي دلت على تكون الرأي العام، فقام لأول مرة بمظاهرات رائعة اعتبرت وجهة ضد الدولة المحتلة.

وكان ما يحدث في العاصمة صداه في الأقاليم . ففي الأقصر أقيمت الزينات، وكان في مقدمة المحتفلين بالعيد أعيان المدينة، وهم إذ ذاك : أيوب بك صبري، وأحمد عياد، ومنشتح بك كرار، وعلي مراد، وعبد الكريم بك العماري.

***

لم تمض أيام على هذه الاحتفالات حتى فكر الإنجليز في القيام بمظاهرة عسكرية، الغرض منها إرهاب الشعب ففي **١٩** سبتمبر سنة **١٨٩٧** خرجت فصيلة[١] انجليزية في رحلة تدريبية إلى القناطر الخيرية. فمرت بقليوب ، حتى إذا كانت أمام مصنع للنسيج اليدوي، يملكه وطني اسمه " علي جلجل" ، وكان العمال في فترة راحة، فبعثوا بالجنود/ فادعي

(١) المقطم في ٣٠-٩-١٨٩٧

قائد الفصيلة أن العمال اعتدوا على جنوده بالبصق، وإظهار علامات الازدراء ، والرمي بالحجارة.

فلما سمع قائد الجيش الاحتلال بذلك ، أظهر أشد الغضب، وأصر على وجوب تأديب المعتدين. وكان كرومر في الإسكندرية، فحضر على عجل، واجتمع بالقائد المذكور ، وأبلغ الأمر إلى نظارة الداخلية، وتقرر أن يتولي هرفي باشا حكمدار العاصمة التحقيق، تمهيدا لتقديم المتهمين إلى المحكمة المخصوصة.

وقد تجمعت عند كوبري شبرا بعض كتائب من جيش الاحتلال ، مشاة وفرسان، وسارت ليلا إلى قليوب. وفي فجر اليوم العشرين من سبتمبر " استيقظ [(١)] أهالي قليوب من نومهم ، فأبصروا الفرسان الإنجليز محيطة بالبلدة

من جوانبها الأربعة، وبعضا منهم متفرقين في داخلها . وقد حظروا على الرجال والأولاد الخروج من البلد ، إلا النساء فإنهن كن يعبرن كيفما شئن . وطبقت الولولة وأصوات البكاء والاستعانة تلك الأنحاء. وقد تزيا كثيرون من الرجال بأزياء النساء ، واخترقوا الحصار فلم يعرفهم أحد، إلا رجل انكشفت حيلته ، فسيق إلى المركز، وسئل عن ذلك فقال: إنني فقير، لا قوت في منزلي، ولا معين لي، فاحتلت على الخروج بهذه الحيلة، لا لقصد غير أنني ابتاع كيلة من الغلة لأقتات بها، فأفرج عنه".

(١) المؤيد في ٢١-٩-١٨٩٧

"أما العساكر الإنجليزية فاكنت تقبض على سائر رجال قليوب وغلمانها وتقودهم إلى المراكز، حيث تجمع خلق كثير . وكان قائد الفرسان الإنجليز المعتدي عليها حاضرا أثناء التحقيق ، فعرض عليه هذا الجمهور الكبير، بقصد أن يتعرف على الفاعلين الأصليين ، فعرف ثلاثة منهم، وأطلق جانب الآخرين جميعا، إلا سبعة عشر شخصا، وضعت الأغلال والقيود في أيديهم ، وسيقوا مشاة إلى شبرا . ومنها حملتهم عربة إلى المحافظة، ومن بينهم " علي جلجل" صاحب مصنع النسيج ونحو الساعة الواحدة بعد الظهر فك الحصار، وأبيحت للأهالي حرية الدخول والخروج".

وقد حكمت المحكمة المخصوصة على " علي جلجل " بمرافقة الحملة السودانية، والعمل بها مدة ثمانية أشهر، وعلى " علي الصعيدي" ومصطفي بلال ، وإبراهيم عزبون بمرافقة الحملة المذكورة والعمل بها مدة سنة أشهر. وبرأت الباقين بعد أن أنذرتهم بعدم العودة إلى مثل تلك الأمور. وذكرت أنها استعملت الرأفة مع المتهمين.

وقد توجه مدير قليوبية إلى مقر قيادة الجيش البريطاني، واعتذر رسميا عن الحادث.

***

ولم يستطع الإرهاب البريطاني أن يحول الرأي العام عن مجراه الطبيعي. فاستمر الاحتفال بعيد الجلوس السلطاني كل سنة. ولما نشبت

حرب البوير سنة ١٩٠٠ ، فرح المصريون للهزائم المتتابعة التي لحقت بالإنجليز ، وأظهروا عطفا كبيرا على البوير . وكانت هذه الحرب حديث الناس في المجالس والمنتديات . قالت مجلة الموسوعات (١٥-٤-١٩٠٠) " هذه أمة الترنسفال الضعيفة بذاتها، القوية بأنفتها وشهامتها ، وقد كرت عليها الدولة الإنجليزية بكتائبها الجرارة، تقاتلها في بلادها ، وتنازعها حياتها واستقلالها ، بلا حق مشروع ، ولا مسوغ مقبول ، سوى ما تسوله لها أطماعها المأثورة، وتدفعها إليه أميالها المشهورة ، مدعية أن هذه الأمة الصغيرة قد أتت المنكرات، واقترفت المحظورات ، على حين أنها ما أرادت إلا حفظ استقلالها ، ولا قصدت غير صيانة حقوقها، شأن كل ذي حياة يذود عن نفسه، ويتحوط لحياته. وما خلنا أن يحسب أداء هذا الواجب الحتم جرما فظيعا في أعين ناشري ألوية التمدن والحرية، وحماة حمي العدالة والإنسانية".

وما كاد مشروع سكة حديد الحجاز يظهر إلى الوجود سنة ١٩٠٣ حتى تألفت الجان في جميع جهات القطر لجمع التبرعات. وتألفت لجنة في مدينة الأقصر برياسة [1] أيوب بك صبري . ونظمت القصائد ،

---

(١) جاء في صحيفة المقطم (١٤-١٠-١٩١٢) ما قصه " نعي لنا من الأقصر وجيه قومه المرحوم أيوب بك صبري، من كبار عيانها، وأوسعهم جاها. خدم العقيد الحكومة المصرية في عدة وظائف. كان فيها مثلا للنزاهة والإخلاص . وعين مفتشا للدائرة السنية فأبقي باجتهاده طيب الذكر . وقد وقف على الأعمال الخيرية عدة أوقاف ولحفظة القرآن الشريف. وله في الدين الإسلامي مؤلفات جليلة. ومناظرات تدل على واسع اطلاعه. وله أياد بيضاء على المدارس والكتاتيب ، ومدرسة الأقصر الصناعية، وقنا الإسلامية . توفاه الله بالغا السبعين من عمره".

وكتبت المقالات في الدعوة إلى التبرع. فمن ذلك قول أحمد شوقي ، من قصيدة طويلة.

يا أمة المصطفي جلت حوائجكم ... فقدموا الخير على الله يقضيها

لا تسمعوا لمريب في خلافتكم ... كفي الخلافة ما يأتي أعاديها

ما هذه الحرب في زي السلام لكم ... إلا طبيبة والكل صاليها

تكثروا ما استطعتم من ديونكمو ... عند النبي فإن الله موفيها

تلك الإعانة لا مين ولا كذب ... إعانة المصطفي جبريل جابيها

فمن يضن على طه وفي يده ... فضول مال فللشيطان ما فيها

الترام والحركة الثقافية

لما سهل على سكان العاصمة الانتقال، كثرت الجمعيات الأدبية والعلمية والدينية .ففي سنة ١٨٩٨ تألفت الجمعية الطبية المصرية ، والجمعية الزراعية ، وجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية، وجمعية شمس الإسلام، وفي سنة ١٩٠٤ تشكلت جمعية إحياء العلوم العربية، وتأسس نادي المدارس العليا سنة ١٩٠٦ ، وجمعية زهرة الآداب سنة ١٩٠٩، وجمعية الشبان المسيحيين سنة ١٩١٠، ونادي الموظفين سنة ١٩١١ ، ونادي العمال سنة ١٩١٢، وهكذا توالي ظهور مثل هذه الجمعيات والأندية على ممر الأيام. وكانت تلقي فيها المحاضرات الأدبية، والعلمية والدينية، وتنشد فيها القصائد.

وكثرت الجمعيات الخيرية التي قامت بدور عظيم في نشر التعليم بافتتاح المدارس الابتدائية والثانوية للبنين والبنات والملاجئ والمشاغل. وانتشرت المدارس الليلية . وظهر أثر ذلك في زيادة الإقبال على التعليم العالي. ففي سنة ١٨٩٨ ، أي بعد وجود الترام بعامين تقدم ٢١ طالبا أللالتحاق بمدرسة الطب، بينما كان مجموع الطلبة الذين التحقوا بها في المدة من سنة ١٨٩٢ – ١٨٩٥ أحد عشر طالبا. وكان طلبة مدرسة الهندسخانة ١٦ طالبا سنة ١٨٩٧ ، فبلغ عددهم خمسين في عام ١٩٠٠، وكذلك زاد عدد طلبة مدرسة الحقوق، ودار العلوم التي جدد بناؤها سنة ١٩٠١.

وفي سنة ١٨٩٧ " أدخل[1] على التدريس بمدرسة الزراعة تغيير شامل فانتفضت مدة الدراسة النظرية ، وزيدت مدة الدراسة العملية، على يد إنجليزي استدعي من الهند خصيصا لذلك. فيعمل التلاميذ في حرث التربة وريها، وزرعها وحصدها، وبذلك استغني عن الفعلة. وتعين غلة الأرض للتلميذ الذي يزرعها، وهو مخير في إبقاء ما يجنيه له، أو يبيعه والانتفاع بثمنه" وكان عدد من التحقوا بهذه المدرسة سنة ١٩٠٠ (٥٤) طالبا، منهم عشرون أجنبيا.

وفي سنة ١٨٩٧ قررت إدارة الجامع الأزهر إدخال بعض العلوم الحديثة ضمن مواد الدراسة . قال كرومر[2] في تقريره عن تلك السنة " وأشهر من ذلك أن مديري الجامع الأزهر طلبوا ١٣ أستاذا من أساتذة المدارس الأميرية، وأدخلوا طرفا جديدة للتعليم في الجامع الأزهر من أنفسهم . أما الدروس التي يدرسها أولئك الأساتذة فهي الرياضيات ، والجغرافيا ، ورسم الخراط، وإذا نظرنا إلى ازدحام التلامذة عفوا واختيارا عليهم لتلقي العلم منهم، حكمنا أن تدريس تلك العلوم في مدرسة اشتهرت باقتصارها على العلوم الدينية فقط يعد نجاحا عظيما".

وكان عدد طلبة الأزهر سنة ١٩٠٣ (١٠.٤٠٣) ، منهم ٦٤٥ من أبناء البلاد الإسلامية.

---

(١) تقرير كرومر عن سنة ١٨٩٧ ، المقطم في ٩-٦-١٨٩٨

(٢) المقطم في ٩-٦-١٨٩٨

ومنذ سنة ۱۹۰۰ بدأت[1] الأصوات ترتفع مطالبة بإنشاء جامعة وقد تجاوزت الحركة الثقافية مدينة القاهرة إلى الأرياف . ففي شهر أبريل سنة ۱۸۹۷ اجتمع أعيان الأقصر في منزل الخواجة اندراوس بشارة، وتبرع كل منهم بمبلغ من المال لبناء دار جديدة صحية لمدرسة الأقباط ، كما تألفت جمعية خيرية لإنشاء مدرسة الأقصر الصناعية، برياسة يسى بك اندراوس، وأسندت أمانة الصندوق إلى عبد الكريم بك العماري، وعضوية : ايوب بك صبري ، ومنشتح[2] بك كرار، وأحمد بك سليم ، والسيد مُحَمَّد الزيني . قالت صحيفة المقطم (١-١٢-١٩٠٩) " جربت الآلات بمدرسة الأقصر الصناعية بحضور حضرات وكيل مديرية قنا ، ومفتش الداخلية ، ومفتش قسم النظام، وجناب مدير خط سكة حديد

(١) مجلة الهلال في ١-٢-١٩٠٠ ، والمقطم في ٢-١٢-١٩٠١.

(٢) منشتح بك كرار، ومن عرب العبابدة الذين استوطنوا على حدود مصر والسودان وقد انضمت هذه القبيلة إلى الدراويش في بدأ الأمر ، لذلك حكم عليه بالإعدام، ولكن لما بدأ الاستعداد على الحدود لفتح السودان ، مالت القبيلة المذكورة إلى جانب مصر، وحاربت الدراويش بقيادة شيخها صالح بك خليفو، الذي قتل في وقعة المرات، جاء في تقرير كرومر عن سنة ۱۸۹۳ مانصه " هجم الدراويش على نقطة المرات ، بين كورسكو ، وأبي حمد، فقاتلتهم الحامية المقيمة هناك تحت قيادة الشيخ صالح بك خليفة قتلا شديدا، وردتهم على أعقابهم ، بعد ما قتل منها صالح بك خليفة ،احد عشر نفسا من رجاله، وقد خلفه في رياسة القبيلة منشتح . قالت المقطم (١٧-١-١٨٩٤) " تعطف الخديو في أثناء طوافه بالحدود ، وأصدر أمره بالعفو عن منشتح بك، من رؤساء القبائل في تلك الجهات، وكان قد حكم عليه قبلا بالإعدام ، ثم خلع عليه خلعة سنية، وأذن له أن يذهب بمعينه إلى كلبشة، وقد استمر في القتال مع الجيش المصري حتى سقطت دولة الدراويش ؛ وكان كتشنر يحبه ويجله، ولما زار الأقصر في مارس سنة ۱۹۱۲ كان منشتح ضمن مستقبليه في المحطة، قالت المقطم في (٥-٣-١٩١٢) " وقد حادث جنابه – أي كتشنر – منشتح بك صديقه القديم منذ حرب الدراويش نحو خمس دقائق".

أسوان – الأقصر . وقد أديرت آلات الخراطة والجلخ والمثاقب وآلة نشر الخشب وخرطه وغير ذلك من الآلات العديدة، ولكان تدار بالبخار".

"وتحتوي مدرسة الأقصر على أربعة عنابر كبيرة للتشغيل. واثنين للتدريس. وهي واقعة في بقعة طلقة الهواء. وفيها فضاء كبير يسع بناء عدة عنابر أخرى ، ستبني كلما دعت الحاجة ، وزادت الرغبة في تعلم الصنائع".

وعلى أثر إنشاء الترام ظهر عدد من المجلات الأدبية والدينية والعلمية . ففي سنة ١٨٩٧ صدرت مجلات: الأجيال ، والصاعقة ، وحمارة منيتي. وفي سنة ١٨٩٨ صدرت مجلات : المنار، والمرصاد ، والزمن، وجهينة، وطبيب العائلة. وفي سنة ١٨٩٩ صدرت مجلة الجمعية الزراعية ، والموسوعات ، والأسد المرقسي، والعائلة ، وهي مجلة علمية أدبية نسائية.

وألفت كتب مدرسية كثيرة . ومنذ سنة ١٨٩٧ اتجه بعض المؤلفين إلى العناية بشئون المرأة. فصدر في العام المذكور كتاب " إرشاد العائلات إلى تربية البنات" لأحمد الحفني، بحث فيه عن أهمية تربية البنات، ووجوب تعليمهن ، والفوائد التي تنشأ عن ذلك. وتكلم عن الزواج عند الأمم الأجنبية، وعن الصفات التي يجب على الزوجين أن يتصفا بها، وعن تربية الأولاد، وأعمال الخياطة والغسيل ، وتنظيف الملابس، وغير ذلك مما يتعلق

بالبنات كما ظهر سنة ١٨٩٩ كتاب " آداب الفتاة" لعلي فكري ، أبان فيه فائدة تعليم البنات، والاعتناء بتربيتهن.

ومن أهم الكتب الثقافية التي ظهرت سنة ١٨٩٩ كتاب " تحرير المرأة" لقاسم أمين، و" سر تقدم الإنجليز السكسون" تعريب أحمد فتحي زغلول.

وتم بناء المعرض الزراعي الصناعي بالجزيرة سنة ١٨٩٩. وفي يوم الخميس أول أبريل سنة ١٩٨٧ احتفل بوضع الحجر الأساسي لدار الآثار المصرية في جهة قصر النيل ." وألقي [١] ناظر الأشغال خطابا يناسب المقام باللغة الفرنسية ، فرد عليه الخديوي بالفرنسية أيضا. ثم أقبل جماعة من العمال الوطنيين بالأثواب البيض والعمائم الحمر، يحملون حجرا ثقيلا ، هو الحجر الأول، ويمشون رويدا ، رويدا وينشدون إنشادا رقيقا. وكان منظرهم ، وهم مقبلون ، من أبدع ما في ذلك المشهد. ثم نزلوا الحجر، وطرق الخديوي عليه بالمطرقة كما يفعل البناء" وفي نهاية سنة ١٩٠٢ نقلت إليه الآثار من متحف الجيزة وبهذه المناسبة صدر أمر خديوي[٢] بإطلاق اسم مربت باشا على شارع الزهرية، واسم شارع الانتكخانة على شارع فم الترعة.

وتم بناء دار الكتب ، ودار الآثار العربية بباب الخلق في نوفمبر سنة ١٩٠٢.

---

(١) المقطم في ١٦-١١-١٨٩٧

(٢) المؤيد في ١٣-١١-١٩٠٢ والوقائع في ١٥-١١-١٩٠٢.

الترام والحركة الفكرية

لم يعرف المصريون شيئا عن استخدام قوة الكهرباء قبل تسيير الترام. لذلك أخذ سكان العاصمة يتساءلون عن هذا السر العجيب عربة مريحة جميلة، تناسب على قضبان ، تضاء بمصابيح كهربائية بديعة المنظر والضوء . وأمام كل عربة مصباح يكشف لها الطريق، ومصباح آخر خلفها، كل هذا جعل الناس حيارى وفي ذهول شديد. قالت مجلة الهلال (١-١-١٨٩٧) " كثر تحدث الناس في هذه الأيام ، وخصوصا في القاهرة عن الكهربائية وخصائصها ، ولما شاهدوه من جرى عربات الترامواي بها، جرى القطر الحديدة بالبخار، فكتب إلينا غير واحد ، يقترحون علينا بسط ماهية الكهربائية ، وخصائصها ، وكيفية سير العربات بها. وقد سألنا بعض القراء عن الشرر الذي يشاهد بين العجلات والخط الحديدي ، وقد يظهر أحيانا عند طرف العمود من الأعلى".

وفي العام المذكور -١٨٩٧- نشر حسن توفيق الدجوي " الرسالة(١) العلمية في التراموايه الكهربائية" وقد جاء في مقدمتها:

" أما بعد، فإني أقدم لتلك الأمة المصرية رسالة جمعت كل ما يتعلق بالتراموايه وأجزائه وشروطه وقوانينه واختراعه ، مما يحتاج لعلمه كل إنسان ، حتى يعلم ما يراه بعينه ، أو يسمع عنه بأذنه ، خصوصا في ذلك

(١) منها نسختان في دار الكتب بالقلعة ، بحث رقم ٧٣٨، ٧٣٩ علوم طبيعية.

المشروع الجليل . وليزول من اعتقادات الأمة جانب عظيم من الضلالة ، ولتظهر لهم حقيقة العلوم والمعارف. فقد طالما سمعنا من أكثر الناس أن الطبيعة اسم لا يراد به إلا معناه في مذهب الناتور اليست- الطبعيين – أي الذين لا يعتقدون في الإله ووجوده ، فنزع ذلك الكثير ثقتهم من المدارس، فأضاعوا مستقبل أبنائهم الذين كان ينتظر منهم خدمة الأوطان بما يكتسبون من العلوم الضرورية لتلك الأزمان ، والتي يقتصر في تعليمها على المدارس. فمن جهة يسيئون إلى هؤلاء التعساء الذين لا يجدون ما يسدون به من رمق الفؤاد ، ومن جهة يخونون الإنسانية والمجموعة الوطنية، ويحرمونها من خدمات هؤلاء الأطفال والشبان".

فمن هذه المقدمة نرى أن من المصريين من كان يمتنع عن إرسال أبنائه إلى المدارس حتى لا يدرسوا الطبيعة التي تؤدي إلى الكفر وقد حاول المؤلف أن ينفي عن علم الطبيعة هذه الوصمة.

ومن ذلك التاريخ – أي تاريخ إنشاء الترام- أخذ الفكر المصري يتطور ويندفع إلى الأمام بخطوات ثابتة . واقتنع المصريون بفائدة العلم الحديث فنجد صحيفة المؤيد (٦-٩-١٨٩٨) تعلق على سقوط دولة الدراويش سنة ١٨٩٨ فتقول " إن هذه الحرب مثال يوضح الفرق بين الحرب العلمية الصناعية، وبين قتال الجاهلية. ولقد مضى الزمن الذي كان ينفع فيه المقاتلين إقدامهم وثباتهم واستقتالهم حتى يموتوا أو ينتصروا ولذلك لم تغن شجاعة الدراويش الذاتية، وتفانيهم في الدفاع عن حوزتهم، لأن نيران المدافع والبنادق البعيدة المرمي كانت تمطرهم بالصواعق المهلكات ،

وتسوقهم إلى الموت فوجا بعد فوج، حتى لم يبق في وجه الباقين سبيل خلاص من الموت إلا التسليم".

وفي سنة ١٩٠٠ لم يكن للجالسين في المقاهي والأندية أو ركاب الترام من حديث سوى الهزائم المتتابعة التي منيت بها الإمبراطورية البريطانية في حينها ضد البوير. وارتفعت الأصوات تطالب بأن تأخذ البلاد بأسباب المدنية الحديثة لأن البوير " كانوا[١] يحاربون حربا متمدنة ، يسوقونها بحسب أصول الفن، وعلى رسوم خططها أران الحرب. حربا أخرى أن تكون بالعقول ، لا بالأبدان".

واشتد الجدل بين الناس " فالعارفون[٢] بعداوة أوربا للشرق ، وطمعها فيه، ظنوا أن مقتضي هذه العداوة أن نمقت كل ما هو عليه أهل أوروبا ، ونعادي كل من يستحسن عملا من أعمالها ، أو يجنح إلى تعلم علومها ، والأخذ بأساليب مدنيتها، يقيسون ذلك على ما يعهدون بينهم في العداوة الشخصية".

***

وكانت فئة قليلة من رجال الأزهر تعارض إدخال العلوم الحديثة ضمن مواد الدراسة، وتقول بعدم فائدتها للمصريين عموما، وللأزهريين

---

(١) المؤيد في ٢١-٣-١٩٠٠

(٢) من مقال لمحمد رشيد رضا ، المؤيد في ٧-١٠-١٩٠١

خصوصا . أما الأكثرية فكانت مؤيدة لهذه العلوم، ومرحبة بكل إصلاح . وقد دار نقاش طويل بين الطرفين على صفحات المؤيد.

فالمنتصرون يقولون " إن [(١)] علم تقويم البلدان وعلم التاريخ يعلماننا ما عليه الدولة الحربية من الاستعداد ، وقد أمرنا أن نعد لهم ما نستطيع ، وورد أن نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به. فالقيام بامتثال هذا الأمر يتوقف على هذين العلمين."

فيرد المعارضون قائلين " قلنا[(٢)] قوله القيام بهذا الأمر يتوقف الخ... ممنوع كما لا يخفي . لم لا يجوز أن نعلم ما عليه هذا العدو بالجواسيس ، وقد عرفت كيفية وصول أي شخص إلى أي جهة، وأنها بالوابورات البرية والبحرية، لا بمعرفة علم تقويم البلدان والتاريخ ، هذا على فرض صحة ما في علم تقويم البلدان والتاريخ . وبذلك علم بطلان قوله بوجوب الاشتغال بعلم الجغرافيا والتاريخ للمصريين عموما، والأزهرين خصوصا، وأنهما كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا".

ويرد معارض آخر [(٣)] قائلا: " قلت في بيان فوائد علم تقويم البلدان ما ملخصه : إن الحرب الحاضرة – يعني حرب البوير – واتفاق

---

(١) المؤيد في ٣٠-٣ ، ١-٤-١٩٠٠.

(٢) المؤيد في ٣٠-٣ ، ١-٤-١٩٠٠.

(٣) المؤيد في ٣،٢/٤/١٩٠٠

الجرائد على أن من أسباب انكسار الإنجليز فيها مدة خمسة أشهر، عدم الوقوف التام على جغرافية تلك البلاد. فأجاب شيخنا الشيخ راضي بأنه لا يوافق على هذا لأن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء وأنه لا سبب فيما ظهر له إلا التوكل وعدمه وأنه لا يعقل جهل الإنجليز".

فيجيب أحد[1] المنتصرين " وهذا القول – يعني قول الشيخ راضي– لا يحتاج إلى جواب ، لأن الأستاذ لا ينكر الأسباب ، وإنما أنكر سببا واحدا أثبته الإنجليز أنفسهم وحجة الشيخ على عدم جهل ضابط الإنجليز بجميع مواقع بلاد البوير وطرقاها ، هي أن في تلك البلاد كثيرين من الأمة الإنجليزية ، كأنه يري أن وجود التجار والصناع من أمة في بلاد ، يكون سببا لمعرفة جميع أفراد تلك الأمة بكل جزء من تلك البلاد ، وهو بديهي البطلان."

وفي سنة ١٨٩٩ صدر كتاب " تحرير المرأة" لقاسم أمين ، فشغل الرأي العام مدة طويلة، وانبري للرد عليه وتسفيه آرائه كثيرون من العناصر المثقفة ثقافة عصرية ، مثل طلعت حرب ، وأحمد حافظ عوض، وعبد القادر حمزة، قالت مجلة الموسوعات لصاحبها أحمد حافظ عوض (١٨٩٩/١١/١٩) " أصبح كتاب تحرير المرأة الشغل الشاغل لأفكار كثير من أدباء المصريين ، الذين استفزهم الغيرة الإسلامية ، وحركتهم الوطنية ، فتنبهت إحساساتهم، وتوجهت أنظارهم إلى أمر عرفوا مقدار أهميته ،

(١) المؤيد في ١٩٠٠/٤/٢،٣

وفطنوا إلى أن في تقليدنا العوائد الإفرنج ونبذ عوائد بلادنا وأهلينا، تشبه بالغراب الذي لم تعجبه مشيته الموروثة عن آبائه ، فأراد محاكاة بعض الطير في المشية التي أرادها، وبقي يحجل في مشيته."

ولكن إذا كانت هذه الآراء ملائمة لعصر الحمير والبغال ، فإنها لم تعد لائقة بعصر الترام ، ولا مناسبة له. فجرت عليها سنة البقاء للأصلح، فأخذت العلوم الحديثة تشق طريقها بين صفوف الشعب، وتقهقر الحجاب ، وقل أنصاره يوما بعد يوم.

***

ولم ظهر الترام وطاب السهر ، وأقبل الشبان على العربدة، أخذ خطباء المساجد يبكون على المنابر وينوحون، ويذرفون الدمع السخين ، قائلين بدنو الساعة[1] ، واقترب يوم القيامة ، وأن الدين قد تركت أحكامه ، واشتبهت أعلامه، ولم يبق من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر. ويزهدون الناس في الدنيا الفانية، ويخوفنهم بالموت وحساب القبر. ويطلبون منهم أن ينصرفوا عن العمل

---

(١)

إلى العبادة . فكتب صاحب المنار مقالات طويلة ، بين فيها الأضرار الفاحشة التي أصابت المسلمين بسبب هذه الخطب. ومما جاء في إحداها: " من[١] الظلم الفاحش ، والجهل العظيم مخاطبة أولئك الخطباء عامة الناس بالزهد بالدنيا والتزهيد بالعمل الذي هو وسيلة الكسب ومناط الارتزاق . وإنما يجوز مخاطبة العلية من الناس والأغنياء منهم بهذا ، أولا : لما فيه من الترغيب بمواساة الفقراء. وثانيا: لأن الزهد إنما يكون بشئ موجود ، لا بشئ مفقود فالغني إذا زهد فإنما يزهد بدنيا مقبلة عليه، فيواسي بماله من هم في دنيا مدبرة عنهم لينال الثواب، أما الفقير فزهده ليس فيه شئ من ذلك ، بل فيه مضرة عليه، فيحرم عليه قطعا ،لأن الفقير المعدم زاهد بالضرورة ، لقلة ما بين يديه، فإذا زهد بلسان الشرع، ازداد يقينا بفضل الزهد والراحة من عناء الكد، بالانقطاع إلى العبادة ، فتنعدم منه الرغبة بالعمل، وينطبع على البلادة والكسل ، فينقلب الزهد والعبادة وبالا عليه، وظلما لمن يعول من الأهل والولد عليه، الإسلام دين العمل للدنيا والآخرة ، دين الجد والنشاط ، لا دين الرهبانية والزهد."

ويرد على القائلين بدنو الساعة محتجا بحديث[٢] " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" وقال " فالساعة علمها عند الله سبحانه وتعالي ، كما جاء في الكتاب . وما يعنينا إن كانت قريبة أم بعيدة . فعلينا أن نعمل بتلك القاعدة الذهبية التي وضعها أحد

---

(١) المنار في ١٨٩٨/٧/٢٦

(٢) المنار في ١٨٩٨/٧/٢٦

الفضلاء ، ونربي أولادنا عليها، وهي : إذا أخبرنا ملك من السماء بأننا سنموت غدا؛ فيجب أن نتمم واجباتنا اليوم، ونموت غدا".

وعلى كل حال فإنه منذ إنشاء الترام " بدأ[١] المصريون يشعرون بسوء حالتهم الاجتماعية . وبدت عليهم علامات التألم منها، وأحسوا بضرورة العمل على تحسينها . وصلت إليهم أخبار الغربيين واختلطوا بهم، وعاشروا الكثيرين منهم، وعرفوا مبلغ تقدمهم . فلما رأوا أنهم متمتعون بطيب العيش، واتساع السلطة ونفوذ الكلمة ، وغير ذلك من المزايا التي وجدوا أنفسهم محرومين منها، والتي لا قيمة للحياة بدونها، انبعث فيهم الشوق إلى مجاراتهم، والرغبة في الحصول على تلك النعم. وقام المرشدون وتزاحموا على بث الأفكار التي اعتقدوا أنها تهدي الأمة إلى طريق النجاح. هذا يدعو إلى العمل والنشاط، وذلك إلى ائتلاف القلوب والاتحاد، ونبذ أسباب الشقاق ، وآخر إلى حب الوطن والتفاني في خدمته ، وغيره إلى التمسك بأحكام الدين ، وهلم جرا"

(١) المقطم في ١٩٠١/١/١٨

الترام والحركة العمالية

كان لوجود الترام أكبر الأثر في التقريب بين فئات العمال وتوحيد كلمتهم . ففي نهاية أغسطس سنة ١٨٩٦ ألف عمال[١] مصانع السجاير نقابة لترعي شئونهم وتدافع عن حقوقهم . وفي أكتوبر من العام المذكور تألفت[٢] نقابة عمال المطابع.

وفي نوفمبر سنة ١٩٠١ اعتصب[٣] الخياطون الذين يعملون في مصانع إعداد الملابس الجاهزة واجتمعوا في قهوة ألف ليلة وليلة بالأزبكية. وكانوا قد أعدوا لهم علما خاصا، فأقسموا أمامه يمين الطاعة ، وقرروا الإضراب عن العمل حتى يجابوا إلى طلبهم ، وهو تعيين أجر على كل قطعة وساروا في مظاهرة يهتفون بحياة العدل، وسقوط الظلم.

فقبض رجال الشرطة على ٢٧ عاملا، وزجوا بهم في السجن. وأخيرا أجيب العمال إلى مطلبهم وانتهي الاعتصاب.

---

(١)الشرق في ٣٠-٨ ، ١٧-١٠-١٨٩٦

(٢)الشرق في ٣٠-٨ ، ١٧-١٠-١٨٩٦

(٣)المؤيد في ٢٦-١١-١٩٠١ ، واللواء في ٤-١٢-١٩٠١

وفي أوائل ديسمبر[1] سنة ١٩٠١ اعتصب عمال مصانع السجاير، وساروا في مظاهرة عظيمة بجهة باب الحديد، ثم تجمعوا بعد ذلك في شارع نوبار، فأرسلت المحافظة ثلاثين خيالا لمطاردتهم وتفريق جموعهم ، فدارات معركة أصيب فيها كثيرون بجروح بليغة، ولم يحقق هذا الاعتصاب نتيجة، لأن مصانع السجاير فصلت العمال المشاغبين، ولم تكن وقتئذ قوانين تحميهم من الفصل التعسفي .

وفي يناير [2] سنة ١٩٠٢ أضرب الحلاقون الذين يعملون عند أصحاب محلات الحلاقة، مطالبين بتخفيض ساعات العمل . وإعطائهم إجازة نصف يوم الأحد. واجتمع سبعون منهم في شارع المهدي بالأزبكية ، ومروا على محلات الحلاقة في بعض الأحياء ، لتحريض عمالها على التضامن معهم . أما أصحاب محلات الحلاقة فقد رفضوا أن يجيبوا العمال إلى طلبهم، بحجة أنهم يتكبدون خسائر ، وبذلك انتهي الاعتصاب على غير نتيجة.

***

وفي أكتوبر سنة ١٩٠٨ اعتصب[3] عمال الترام. وجلسوا على الخطوط في مخزن شبرا، والعباسية والجيزة وكانت مطالبهم تنحصر في أن

(١) اللواء في ٧-١٢-١٩٠١ ، ٢٣-١٢-١٩٠١

(٢)الواء في ١٩-١-١٩٠٢

(٣)المقطم في ١٨-١٠-١٩٠٨ ؛ واللواء في التاريخ المذكور ؛ وفي ٢١-١٠

تكون مدة العمل ٨ ساعات بدلا من ١٣، وزيادة المرتبات ، وحقهم في الإجازات الاعتيادية والمرضية . وأن يمثلوا في اللجنة التي توقع الجزاءات عليهم، وعدم جواز فصل العامل إلا بناء على أسباب معقولة. وأن يعفي العمال من دفع ثمن البدل والأحزمة والشنط والنمر النحاسية التي تصرفها لهم الشركة.

استعانت الشركة بالحكومة فأرسلت رجال الشرطة الذين انهالوا على المعتصبين ضربا بالعصي والكرابيج حتى أجلوهم عن أماكنهم ، وبذلك خرجت القطارات يقودها سائقون كانوا يعملون من قبل ثم فصلوا. فأعادتهم الشركة وانتفعت بهم في هذا الظرف. ولكن رجال الشرطة لم يستطيعوا التغلب على المعتصبين في مخزن الجيزة، لما أبدوه من المقاومة العنيدة، وفي اليوم التالي توجه إليهم حكمدار العاصمة على رأس قوة ضخمة من رجال الشرطة وعربات الإطفاء . وهجمت القوة على العمال هجمة واحدة فأوسعتهم ضربا شديدا وقبضت على نحو ثمانين عاملا، وقادتهم إلى سجن محافظة القاهرة . وبذلك أخفق العمال في تحقيق أي مطلب مما طلبوا.

***

إلا أن عدوي هذا الاعتصاب قد سرت إلى عمال عنابر السكة الحديد، وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف عامل على حسب رواية[1] المقطم،

(١)المقطم في ١٨؛ ١٩-١٠-١٩١٠

وأربعة آلاف ، على حسب [1] رواية اللواء. وقد بدأوا الاعتصاب صباح ١٨-١٠-١٩١٠، ومنعوا خروج القطارات . أما سبب اعتصابهم فإنهم كانوا يشكون من المستر بكت ، وكيل كبير المهندسين ، وقالوا إنه يضطهدهم ويسئ معاملتهم ، وبكثير من توقيع الجزاءات عليهم، وطالبوا بتحسين أجورهم ، وإنشاء مدرسة خاصة لتعليم أولادهم ، وأن يتولى طبيب المصلحة علاجهم من الجروح الخفيفة التي تصيبهم في أوقات العمل، وأن يسمح لهم بالسفر بالمجان مع عائلاتهم.

وقد توجه مدير مصلحة السكة الحديد المستر ماكولي إلى العنابر، وحاول إقناع العمال بالعدول عن الاعتصاب ، واعدا إياهم بالنظر في مطالبهم ، فوافق قليلون ، أما الأغلبية فرفضت أن تنهي الاعتصاب . وحينئذ هجم عليهم الفرسان شاهرين السيوف ، وأطلق الرصاص للإرهاب . واشتبك العمال مع رجال الشرطة في معركة حامية، استخدموا فيها الأحجار والأخشاب وقطع الحديد، وحضر وكيل المحافظة والحكمدار ، والمعركة مازالت دائرة . وأخيرا تمكن رجال الشرطة من تشتيت شمل العمال، وقبضوا على زعمائهم وزجوا بهم في السجن،

---

(١) اللواء في تاريخ المذكور

تمهيدا للتحقيق معهم وتقديمهم للمحاكمة. وبلغ عدد الجرحى من رجال الشرطة ٣٠، ومن الأهالي ٢٥، والعمال ٥٠، وأصيب مدير السكة الحديد ومدير الإدارة ووكيل المحافظ بحجارة في ظهورهم ورءوسهم . وحطم العمال سيارة مستر بكت، وأتلفوا عربة لإطفاء الحريق.

وفي الساعة الثانية بعد ظهر اليوم المذكور هدأت الأحوال، وعاد ثلثا العمال إلى عملهم، وسارت القطارات على جاري عادتها.

وقد علقت صحيفة اللواء على هذه الحركة بقولها " في إمكاننا أن نقول إن العاصمة لم تشهد منذ دخول الإنجليز إلى مصر حتى اليوم حادثة كتلك الحادثة، أظهر البوليس فيها من الشدة والخشونة والقسوة ما أظهره في هذه". وقال صادق[1] عنبر " إنه – أي هذا الاعتصاب – خير درس لحكامنا ن يوقفهم على تطور فكر المصري ، ويظهره لهم بثوبه الجديد، ثوب العليم بمصلحته، الحريص عليها، المتفاني في المطالبة بها، وبتعبير آخر إننا قد رأينا اليوم – بفضل التصرف الشديد – مظهرا من مظاهر الاشتراكية ، لا يبعد أن يصير هلاله على توالي الأيام بدرا كاملا".

***

(١) اللواء في ١٩-١٠ ، ٢٢-١٠-١٩١٠

وفي أول نوفمبر[١] سنة ١٩١٠ اعتصب عمال الصيانة في شركة الترام، وكذلك عمال محطة توليد الكهرباء التابعة للشركة المذكورة. وكانت مطالبهم تنحصر في تخفيض ساعات العمل إلى ثمان في الصيف ، وتسع في الشتاء وكانوا يعملون من السادسة صباحا إلى السادسة مساء. وعدم فصل أي عامل إلا لسبب معقول. وتنظيم الإجازات المرضية والاعتيادية.

ثم عادوا إلى العمل بعد أن وعدهم المدير بالنظر في مطالبهم ، ولكن الشركة فصلت عددا منهم ، ولم تحقق لهم أي مطلب.

***

وفي ٣٠-٧-١٩١١ عاد[٢] عمال الترام إلى الاعتصاب ، وامتنعت الشركة عن صرف مرتبات المعتصبين، فأخذ بعضهم يطوف بالمقاهي والمحلات التجارية والمصالح الحكومية ، وأمامهم الموسيقي ولوحة كتب عليها " إن العمال المعتصبين يطلبون من الجمهور مد يد المساعدة إليهم" فأقبل كثير من الناس على مساعدتهم.

وفي اليوم التالي عزمت الشركة على إخراج قطارات الترام من المخازن مستعينة بالحكومة . فتمكن رجال الشرطة من إخراج بعض القطارات من مخزن شبرا، وسارت إلى العباسية في حراسة شديدة، وكان

---

(١)اللواء في ١-١١-١٩١٠

(٢)المقطم في ١، ٣-٨-١٩١١.

العمال في مخزن العباسية قد وضعوا الحواجز على الخطوط الحديدية وجلسوا عليها ليمنعوا خروج القطارات فاصطف الجنود المشاة والفرسان على الجانبين. ووصل مدير الشركة ومعه بعض كبار مساعديه. وتقدم رجال الشرطة يطلبون من المعتصبين إزالة الحواجز، فرفض العمال ذلك بإصرار ، وهجموا على مأمور قسم الوايلي، وعلى غيره من كبار الضباط فأمر وكيل الحكمدار رجال الشرطة بالهجوم على المعتصبين ، فهجموا شاهرين السيوف، واجتمع عدد عظيم من الأهالي، وقد انجلت المعركة عن ٢١ جريحا منهم أربعة من رجال الشرطة، وجرح كثيرون جراحات خفيفة. ثم خرجت بعد ذلك عدة قطارات وسارت في حراسة الشرطة، فهجم عليها بعض المعتصبين، ورشقوها بالحجارة ، وضربوا الركاب والعمال الذين قبلوا العودة إلى عملهم . وهكذا سادت الفوضى واختل الأمن في جهة باب الحديد وأبي العلا وقصر النيل. وتركت مركبات كثيرة في الشوارع طول الليل . واشتد زحام الأهالي بجهة باب الحديد، فانسدت الطرق، وتعذر المرور، ثم أقبلت عربة إطفاء فسلطت مياهها على الأهالي فتفرقوا.

وكانت حركات العمال هذه إرعابا بما سوف يحدث خلال ثورة سنة ١٩١٢ ، فعمال الترام، وعمال عنابر السكة الحديد كانوا أول من لبي داعي الجهاد.

***

وقد ظهرت فكرة إنشاء حزب اشتراكي في مارس ١٩٠٨ قالت صحيفة الإقدام (٢٠-٣-١٩٠٨) تحت عنوان " حزب الاشتراكيين" " علمنا أن قد تأسس هذا الحزب برياسة الدكتور شبلي شميل، وعضوية كل من الدكتور شدودي ، وسامي أفندي جريديني ، وتوفيق حبيب ، ونجيب أفندي ابكاريوس وغرضه كبح جماح الغني العاتي ليكف عن دروس الفقير بقدميه" ولكن هذا الحزب لم يظهر إلى الوجود ، وإن كان بعض الكتاب (سلامة موسي، وشبلي شميل، ونقولا عبد الأحد) أخذوا يكتبون المقالات الطويلة عن الاشتراكية وما حققته للعمال في أوربا. فقد جاء في مقال بتوقيع (سلامة موسي اشتراكي) ".. فانجلترا وألمانيا أرقي أمم العالم اليوم، لأنهما أكثر الأمم اشتراكية.

والطريقة لتحقيق الاشتراكية هي أولا: تنظيم الاعتصابات بين العمال حتى تزيد أجورهم . وثانيا: حث الأمة على إنابة أعضاء اشتراكيين في البرلمانات والمجالس المحلية، يملكون ناصية التشريع فينصفون العامل. ولنقل هنا كلمة عن موافقة الاشتراكية أو غير موافقتها لنا. فمن المعروف الآن أن نصف ثروة الأمة في أيدي الأجانب، لأن حضرات وطنيينا – أصحاب الشعور الحي – فضلوا محاولة طرد الإنجليز بنظم القوافي والسجع ، على أن ينبهونا إلى كيفية سقوط ثروتنا في أيدي الأجانب. فضلوا التصويت كالفونوغراف بكلمة الجلاء ، على أن يعلمونا كيفية إنشاء لو كانده" ثم ختم مقاله هكذا " يجب أن نذكر أن الرشوة والاشتراكية متضادتان . فإذا كانت الاشتراكية نعمة في انجلترا ، فذلك لأن الرشوة معدومة ، لا تصور لوجودها هناك. وهي النقمة كل النقمة إذا تسربت إليها الرشوة. لهذا يجب

قبل الكلام عن الاشتراكية في مصر ، تطهير الإدارة المصرية من هذا الداء وفي الختام أقترح –كتمهيد للاشتراكية – تأليف جمعية لمقاومة الرشوة".

وفي هذا المقال من الاضطراب والتخليط والمغالطة ما لا يخفي. فالأجانب كانوا يعيشون في حماية الاحتلال ، وفي ظله تمتعوا بامتيازات مكنتهم من السلب والنهب. وكيف تقوم الاشتراكية مع وجود الاحتلال الذي كان كان يحمي المستغلين والمرتشين ؟ وكيف تكون انجلترا اشتراكية في سنة ١٩١٠ مع أن القطاع الخاص كان مسيطرا عليها؟.

ولم يكن لكلمة " الاشتراكية" مفهوم محدد في الأذهان ، لأن الكتاب المصريين أطلقوا هذا الاسم في مقابل كلمة " سوشيالزم" وهي ترجمة غير صحيحة. قال شلبي شميل " إن[١] هذا الخطأ في التعريف؛ جر معه خطأ أعظم في الفهم . والصواب: الاجتماعية، من الاجتماع ، أي العمران، وأصحابها : الاجتماعيون ، ولكننا جاريناهم هنا عملا بالمثل القائل: خطأ مشهور خير من صواب مهجور" ولكن كلمة " الاجتماعية" لم يكتب لها البقاء، وحلت محلها كلمة " الشيوعية" في العشرينات.

والخطأ في الفهم أدي إلى نفور المصريين من الاشتراكية . قال شبلي شميل " كنت[٢] أفهم قبل اليوم أن الاشتراكية في نظر خصومها مطلب يتعذر نواله، فإذا هي فوق ذلك وصمة تعرض صاحبها لأقبح

---

(١)المؤيد في ١٣-١-١٩٠٨

(٢)المؤيد في ٢٦-٨-١٩٠٧

المظان ، ليس في نظر الجمهور فقط، بل في نظر الخاصة أيضا". والاشتراكية التي دافع عنها شبلي شميل ودعا إليها هي الاجتماعية أي الشيوعية.

أن الكتابات التي عرضت للاشتراكية لم يكن فيها وضوح، فلم نجد كاتبا دعا إلى تحديد الملكية الزراعية مثلا، أو إلغائها. ولعلك لاحظت أن أعضاء الحزب الاشتراكي الذين ذكرتهم صحيفة الإقدام، والكتاب الذين جرروا المقالات عن الاشتراكية، لم يكونوا على دين الأغلبية، ولا حتى على دين الأقلية، بل عرف عنهم الإلحاد ، لذلك كان يكفي أن ينهض عالم مسلم مثل مُحَمَّد فريد وجدي مسفها آراءهم، قائلا إن الأخذ بتعاليم الإسلام، وجمع الزكاة ووضعها في موضعها الذي أمر الله به ، يغني عن كل نظام آخر . وفي هذا المعني يقول أحمد شوقي من قصيدة نظمها سنة ١٩١٠.

الاشـــتراكيون أنـــت إمـــامهم   لـولا دعـاوي القـوم والغلـواء

داويـــت متئـــدا وداووا طفـــرة   وأخف من بعض الدواء الداء

والاشتراكيون الذين عناهم أحمد شوقي هم الشيوعيون المتطرفون، الذين لا يريدون تحقيق مبادئهم بالتدريج، وإنما دفعة واحدة، وفي ظل الثورة الحمراء وهو يعيب عليهم هذا . أما الاشتراكية كما نفهمها نحن الآن في نظامنا الحالي فليس فيها طفرة ، ولا مغالاة، ولا هي مما يقال فيها " وأخف من بعض الدواء الداء".

الترام والحركة الوطنية

ساعد وجود الترام – كما ذكرنا – على تكوين رأي عام بين سكان العاصمة كما ساعد على اتساع حركة إنشاء المدارس والإقبال عليها . وكان الطلبة مازالوا هم عصب الحركة الوطنية ففي[1] ٢٨ فبراير سنة ١٩٠٦ اجتمع طلبة مدرسة الحقوق في حديقة الأزبكية للمشاورة في أمر اللائحة الجديدة التي يراد تطبيقها عليهم وهي تقضي برفع رسوم القيد من خمسة عشر جنيها إلى عشرين في السنة وفصل الطالب الذي يرسب سنتين متواليتين.

وقد أحضر الطلبة القرآن والإنجيل والتوراة . وأقسم المسلمون والمسيحيون واليهود عليها بأن يكونوا يدا واحدة. فلا يرجعون عن عزمهم حتى ينالوا مطالبهم العادلة. وأن يساعد الأغنياء منهم الفقراء إلى أن يظفروا ببغيتهم.

وانضم إليهم طلبة مدرسة الصنايع والفنون . وكانوا قد رفعوا إلى ناظرهم بعض مطالب تتعلق بنظام الدراسة والامتحانات ، فلم توافق نظارة المعارف عليها، كما انضم طلبة مدرسة الزراعة تضامنا مع طلبة الحقوق.

---

(١)اللواء في ٢٨-٢ ، ٣-٣-١٩٠٢:

كتب مصطفي كامل معلقا على حركة اعتصاب الطلبة تحت عنوان " مسألة الطلبة[1] " : " قضت البلاد أسبوعا كاملا وهي شديدة الاهتمام بمسألة الطلبة ، لأنها مسألة حيوية كبري، تهم الفقير والغني، والمتعلم والجاهل على السواء. وقد دل هذا اهتمام العظيم على أن أمر التعليم أصبح عند الأمة المصرية في مقدمة أمورها الحيوية، وأن لناشئتها المحل الأول في عنايتها . وأن رجال الغد هم موضع الآمال كلها" إلى أن قال " أظهر الاعتصاب أن رجال الغد متضامنون متكاتفون ، عارفون لمعني الاتحاد والاتفاق ، غيورون على حقوقهم محبون للعدالة، متشربون بروح الاستقلال فإن لم يكن لاعتصاب الطلبة من فائدة إلا إظهار هذه النتائج العظيمة لكفي، وإنه لا يسعنا إلا شكر أولئك الطلبة الأمجاد الذين اهتزت أركان القطر لحركتهم ، وعرف اليائسون أن اليوم غير الأمس، وأن الطبقة المتنورة المعقودة آمال الأمة عليها ذات ضمير حي ، وأن الغيورين من المصريين الحق في أن بينوا قصور الآمال عالية، ويقولوا بأعلى أصواتهم: إن الغد المنتظر قادم، وبيمينه راية السعادة والخير لهذا الشعب العزيز".

ولم تبق صحيفة إلا اهتمت بهذا الاعتصاب ، تبعا لاهتمام الأمة به . قالت صحيفة[2] الأهرام " رأينا جمهورا عظيما من تلامذة المدارس الثانوية في حديقة الأزبكية ، وبينهم الخطباء يتكلمون ويحثون رفاقهم على تقديم مطالبهم لنظار مدارسهم ، يشكون فيها من نظام الامتحانات . وقد

---

(١)

(٢)نقلا عن اللواء في ٣-٣-١٩٦٠

قال الخطباء كلاما مرا عن سكرتير المعارف، وعن السياسة التي اتبعت في قتل روح التعليم ومناهضته ، وانتهوا إلى أن يكتبوا مطالبهم ويقدموها لنظار مدارسهم".

وقالت الجوانب [١] المصرية " ولا ريب أن روح التضامن التي سرت بين الطلبة روح شريفة حميدة، يحمد أصحابها عليها ويشكرون فإن فقد هذه الروح من هذه البلاد كان من أشد العوامل التي جعلتها في موقفها السياسي الحالي.

ولا حاجة بنا إلى تعداد الحوادث التي تؤيد قولنا، فإن من يراجع تاريخ مصر في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة يتضح له صدق قولنا لأول وهلة، والجميع يعلمون أن الذين لا يوافقهم استقلال هذه البلاد قد دأبوا في قتل هذه الروح وملاشاتها من صدور أبناء البلاد، سواء كانوا في المناصب الأميرية ، أو في الدوائر الخصوصية".

وفي اليوم الثالث من شهر مارس اجتمع الطلبة للتشاور في الأمور، وكان كرومر قد أعلن أنه متي عاد الطلبة إلى مدارسهم فإن الحكومة سوف تنظر في مطالبهم بكل اهتمام وقد توجه[٢] إلى مكان اجتماع الطلبة أحمد لطفي السيد مع بعض أصدقائه ، وحثوهم على

(١)

(٢) المقطم في ٣-٣-١٩٠٦

الانتظام في سلك الدراسة، وعدم الاستماع إلى تهييج الحزب الوطني والثقة بوعود الإنجليز.

وبناء على تصريح كرومر، قرر الطلبة إنهاء الاعتصاب والعودة إلى الدراسة، وقد أجيبوا إلى مطالبهم.

والحقيقة إن حركة الطلبة هذه كانت حركة وطنية تختفي وراء مطالب معينة وكان قصد المحتلين من وضع لوائح مشددة هو صرف الشبان عن التعليم العالي.

ومن هذا التاريخ بدأ نشاط الطلبة السياسي يزداد يوما بعد يوم. فإذا سمعوا بأن الخديوي ذاهب لاحتفال رسمي، تجمعوا من تلقاء أنفسهم ووقفوا في طريقه هاتفين بطلب الدستور ثم أبرقوا إليه بذلك. وكانت هذه المظاهرات تزعج سلطات الاحتلال قال غورست في تقريره عن سنة ١٩٠٩ "…. وما دامت المدارس نقطة الدائرة التي تدور حولها مساعي المضللين السياسيين فلا مناص من إبطاء تعليم الشبان المصريين " ومن طلبة المدارس العليا تألفت جمعية سياسية كان من أعضائها إبراهيم الورداني.

وعقب مقتل بطرس غالي في ٢٠-٢-١٩١٠ شدد المحتلون النكير على الطلبة. فصدر قرار في ٣٠-٥-١٩١٠ [١] يقضي بمعاقبة

---

[١] المقطم في ٣٠-٥-١٩١٠

التلميذ بالرفت النهائي إذا سلك مسلكا معيبا. كاشتراكه في المظاهرات داخل المدرسة أو خارجها أو أعطي أخبارا للجرائد أو أبدي ملاحظات بواسطتها، أو اشتغل بمكاتبتها أو كان وكيلالها. وانتشر الجواسيس في المدارس العليا والثانوية لمراقبة سلوك الطلبة والتبليغ عنهم. هذا بعض ما حدث في أوساط الطلبة .

***

أما بين الشعب فإن روح الوطنية – بعد إنشاء الترام – أخذت تنمو نمو هائلا وذلك بفضل انتشار الصحف والمجلات التي كانت تحفز الهمم، وتعمل على تقوية العزائم ومع أن الترام كان دليلا على دخول العاصمة في أدوار الحضارة والمدنية ، إلا أن إنشاءه بواسطة شركة أجنبية كان موضع امتعاض الكثيرين قالت صحيفة الشرق (١٠-٨-١٨٩٦) "... ونحن لم نزل نردد ما قلناه في هذا الصدد، وهو أن سير المركبات الكهربائية في عاصمة القطر المصري، وإن كان يدل من الجهة الواحدة على دخولنا في أدوار الحضارة، وولوجنا أبواب المدينة ، واقتدائنا بغيرنا من جماعة المتمدنين، حتى أصبحت عاصمة بلادنا لا تقل في الفخامة والأبهة . ووجود معدات الراحة عن أشهر العواصم الأوربية إلا أن ذلك يظهر من الجهة الأخرى مقدار تهاملنا وتساهلنا في القيام بمثل هذه المشروعات من تلقاء أنفسنا، والاعتماد على الأجانب في كل أعمالنا وأحوالنا فتسيير مركبات الترامواي في مصر بواسطة شركة أجنبية هو عنوان عار وعلامة خزي تلحق أغنياء هذه البلاد ووجهاءها ، وتذكرهم بسوء تدبيرهم ، وشدة

تقصيرهم ، فعسي أن يكون في ذلك عبرة وتذكرة لأولي الألباب في مستقبل الأيام".

لم يكن في العاصمة قبل إنشاء الترام من الشركات الأجنبية سوي شركة المياه وقد مر بنا أن الناس لم يكونوا كلهم قادرين على الحصول على المياه منها. فاستغنوا عنها بمياه الآبار ومياه النيل وشركة غاز الاستصباح وكانت تتولي إضاءة الشوارع الكبرى وبيوت الأغنياء فلما أنشئت شركة الترام وحققت أرباحا لم تكن في الحسبان حتى ارتفع سعر السهم[1] فيها من عشرين جنيها إلى ستين وسبعين ، اندفعت عناصر أجنبية أخرى لاستثمار أموالها في القاهرة ففي نهاية سنة ١٨٩٦ تأسست شركة بلجيكية للإضاءة الكهربائية . وفي ديسمبر من العام المذكور حصلت شركة إنجليزية على امتياز للتنقيب عن البترول . كما حصلت شركة إنجليزية أخرى على حق احتكار بيع الملح في الداخل والخارج وتألفت الشركات الإنجليزية الآتية: شركة الفنادق، وشركة البواخر النيلية والدائرة السنية، والبنك الأهلي ، وكان الإنجليز يمتلكون عظم أسهمه ويسيطرون عليه، وهذا غير مشروعات النيل التي استأثر بها رجال المال الإنجليز مثل خزان أسوان الذي بدئ في إنشائه سنة ١٨٩٨ بأموال غني انجليزي اسمه إيرنست كاسل. وكذلك جميع القناطر التي شيدت على النيل والترع الكبرى . أما البنوك والشركات الأجنبية الأخرى فأكثر من أن تحصي. وكان يعين بهذه المنشآت أبناء الأجانب نظير مرتبات طيبة فإذا وصل مصري بعد جهد

---

(١)الأخبار في ٣٠-٧-١٨٩٧

جهيد إلى وظيفة في منشأة أجنبية فلا يمكن أن يرقي إلى مستوي الأجنبي في المرتب.

وحينما طلب أعضاء الجمعية[1] العمومية في جلسة ٣ مارس سنة ١٩٠٨ أن يكون تدريس المواد في المدارس باللغة العربية، عارض سعد زغلول ناظر المعارف إذ ذاك قائلا : إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية وشرعنا فيه فعلا فإننا نكون قد أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى، لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمرك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلطة التابعة للحكومة ، والتي يقتضي نظامها وجود كثير من الموظفين العارفين بإحدى اللغات الأجنبية حق المعرفة، ولا أن يستخدموا في بنك أو مصرف ، ولا أن يستغلوا في شركة من الشركات الأجنبية التي كثر تأسيسها الآن في بلادنا ، ولا يكونوا محامين أمام المحاكم المختلطة ، ولا مترجمين ولا غير ذلك من كل ما يحتاج فيه إلى البراعة في لغة أجنبية، وهو كثير جدا في بلادنا."

واستأثر الإنجليز بجميع الوظائف الحكومية الكبرى. ومنعوا قيام الصناعة في مصر. ثم جاءت اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩، وبمقتضاها أصبح الحكم في القطر الشقيق للإنجليز ، مع أن استرداده كان بأموال مصر ودماء بنيها وأرغموا الحكومة المصرية على دفع إعانة سنوية لحكومة

---

(١)المؤيد في ٣-٣-١٩٠٢.

السودان. وقد بلغت جملة ما دفعته مصر منذ الفتح إلى سنة ١٩٠٩ نحو عشرة ملايين جنيه كما زادت نفقات جيش الاحتلال من ٨٤.٨٢٥ جنيها سنة ١٩٠٤ ، إلى ١٤٦.٢٠٥ ج.م سنة ١٩١٠.

فأخذ الشعب يوازن بين حرمانه من خيرات بلاده، واستئثار الأجانب بهذه الخيرات . فازداد الشعور الوطني قوة واندفاعا إلى مقاومة الاحتلال الذي ساعد الأجانب على بلوغ درجة كبرى من الجاه والثراء، والنفوذ والسلطان ، وفتح أبواب البلاد أمامهم ليدخلوها وينتزعوا من أهلها القوت الضروري .فكثر الحديث عن ضرورة قيام حكم نيابي سليم، فما كان من الإنجليز إلا أنهم زادوا جيش الاحتلال ، ثم انتهزوا فرصة حادثة دنشواي، واستصدروا فيها الأحكام المشهورة، اعتقادا منهم أن هذه الأحكام من شأنها أن ترهب الشعب فيخضع ويستكين ، ولكن أملهم لم يتحقق بالطبع ، وظل الشعب ملتفا حول مصطفي كامل . وقد تجلي الشعور الوطني يوم وفاة الزعيم الشاب. قالت صحيفة المؤيد (١٦-٢-١٩٠٨) تحت عنوان " معني المظاهرة" " رأي سكان مصر من أهليها ونزلائها في هذه الأيام مظاهرة عظمي، لم يروا على شاكلتها في مثل موضوعها من قبل . رأوا عشرات الألوف أو مئاتها تشيع جنازة المرحوم مصطفي كامل باشا، وأكثرهم يعج بالبكاء حول سريره، عجيج الثاكلات.. رأوا الماشئة المصرية ممثلة في خير عناصرها تتبادل فرقة منها حمل النعش، وتتقدم الفرق الأخرى بأعلامها إلى القبر كأنها جيش يجود بنفسه في ساحة القتال".

ولم تقف الحركة الوطنية عند حدود القاهرة ، بل تجاوزتها إلى جميع جهات القطر، قالت صحيفة المؤيد (١٦-٢-١٩٠٨) " وجاءنا من الأقصر : أسفت الأمة المصرية ، وحق لها الأسف ، وتضاعفت الأحزان، وهلعت القلوب، واندهشت الألباب ، حيث رزئت بموت زعيمها الأكبر ، الذي وقع خبر نعيه على الأفئدة كالصواعق المحرقة، حتى كادت تتلاشي أسفا وحسرة أمطر الله على جدثه سحائب رحمته ورضوانه، وعوض الصحافة المصرية فيه خيرا، ورزق آله والأمة الصبر والسلوان".

" إمضاءات: مصطفي إبراهيم القاضي، مُحَمَّد موسي وكيل المؤيد، حنفي مكاتب اللواء"

***

وحينما كان يبدو من عباس ميله إلى مسالمة المحتلين ، كانت تصوب إليه سهام النقد. مثال ذلك ما جاء في مجلة حمارة منيتي (٢٥-٥-١٩٠٠) " طلبت المعية السنية ٨٠٠ طن من الفحم الحجري ليخت المحروسة الذي سيقل الجناب الأكرم إلى لوندره. ومعلوم أن ثمن الطن الواحد يزيد عن الثلاثة جنيهات فيكون مجموع ما تأكله النار وحدها في هذا السفر السعيد ٢٥٠٠ ج ، فلا حول ، ولا "

وقالت المجلة المذكورة في (٢٣-٤-١٩٠٠) " سيسافر الجناب العالي إلى بلاد الإنجليز في هذين اليومين ، بعد أن كانت أنواره محجوبة عنهم وعن جلالة ملكتهم بحكم الوطنية. والوطنية – كما تعلمون – لها

مع الإنسان دورتان: دورة نارية، وأخرى ترابية . ومتى كانت وطنية المرء في دورتها الترابية ترونه يفعل مالا يفعله وهي في دورتها النارية. وإليكم الفرق بين هذه وتلك : إنكم تعلمون ما كان يفعله سموه في الأمس من التباغض والتنافر مع هؤلاء الإنجليز، وما يفعله اليوم معهم من التبجيل والتعزيز وكل ذلك لا يحط من منزلة سموه التي بلغت أرفع شأو في قلوب المصريين والمصريون لا يزالون متعشمين في وجهه خيرا. أما نحن فلا نتعشم في هذا الخير إلا إذا عدل سموه عن زيارة بلاد الغير."

***

وكثر الكلام عن الوسائل التي تؤدي إلى النهوض بالوطن . فقالوا [١] إن القوة كل القوة في المال. ولا حياة للأمة بغير مال، ولا وجود ، ولا استقلال. ومعلوم أن ثروة كل دولة من ثروة أمتها ، وثروة الأمة من ثروة الأفراد. فإذا كان الأفراد أغنياء كانت الأمة غنية . وإذا كانت الأمة غثية كانت الدولة قادرة على حفظ ذمارها، وصد الأعداء عنها. فإذا أعنت صانعا على إحياء صناعته أو تاجرا على توسيع تجارته، أو زارعا على إتقان زراعته، فقد أحسنت إلى ذلك التاجر والصانع والزارع أولا، وزدت ثروة بلادك ثانيا. فالصانع والتاجر والزارع يجب أن يكون لهم المقام الأول في الهيئة الاجتماعية وهذا معناه مقاطعة الأجانب وتشجيع الوطنيين.

(١) المنار ١٢-٦-١٨٩٨

وقد كثر الشعر الوطني. وأفسحت الصحف والمجلات صدرها لنشره. مثال ذلك قول أحمد شوقي، من قصيدة نظمها حينما غادر كرومر البلاد:

اليـوم أخلفـت الوعـود حكومـة	كنـا نظـن وعودهـا الإنجـيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه	مصرا فكانت كالسلال دخولا
هـدمت معالمهـا وهـدت ركنهـا	وأضـاعت اسـتقلالها المـأمولا

الترام والحركة الفنية

حينما أتاح الترام لسكان العاصمة فرصة السهر خارج المنازل إلى ساعة متأخرة من الليل. ولم يكن هذا مألوفا من قبل استطاع الناس وبخاصة الشبان أن يتوجهوا إلى المسارح وصالات الرقص ، ودور الخيالة.

ومن المسارح التي عرفت في ذلك الوقت، أي منذ سنة ١٨٩٦ إلى نهاية القرن: المسرح[1] العربي لأبي خليل القباني، بشارع عبد العزيز ، في موضع سينما أولمبيا حاليا. ودار التمثيل العربي لسلامه حجازي بشارع الباب البحري ولحديقة الأزبكية ومسرح مصر العربي لإسكندر فرح والمسرح العباسي، وكلاهما بشارع جلال.

وفي سنة ١٨٩٦ جاءت من دمشق فرقة مسرحية برياسة نقولا مصابني لإحياء بعض الليالي ومثلت فصولا من روايات مضحكة في المسرح العربي، منها فصل الأخ الخائن، وفصل الملك وفصلا من رواية القهوة. ودار الرقص الدمشقي على نغمات العود والدبكة.

---

(١)جاء في صحيفة المؤيد (١٩-٥-١٩٠٠) " شبت النار شبوبا هائلا في الساعة العاشرة وربع من مساء أمس في تياترو الشيخ أبي خليل القباني المجاور لسوق الخضار وساعدت الريح الشديدة وقتئذ على اشتعالها ، حتى رجفت القلوب خيفة من شر هولها ، وخشي الناس جميعا زيادة امتدادها غير أن رجال المطافي أخذوا يبذاون قصاري جهدهم في إطفاء الحريق. حتى أطفأوه في نصف الليل ، بعد أن دمر التياترو بأجمعه وبعض القهاوي والحوانيت المجاورة وبلغت الخسائر ٢٤٢٠ جنيها وقيد الحادث قضاء وقدرا."

وألف ميخائيل جرجس فرقة السرور في نوفمبر سنة ١٨٩٦ ، ومثل مسرحية " عواقب الأمور " وقام بأهم أدوارها الشيخ درويش الإسكندراني " سيد درويش" .

وفي سنة ١٨٩٨ ألف سليمان قرداحي فرقة جديدة، وضم إليه المطربة المشهورة ملك سرور، والممثلة البارعة لبيبه مللي. وهكذا توالي ظهور الفرق التمثيلية.

وأقبل بعض الأدباء على الكتابة للمسرح، سواء بالترجمة أو بتحويل القصص إلى مسرحيات أو بالتأليف.

فمن المسرحيات التي ألفت سنة ١٨٩٨: العنا والقهر في دخول نابليون مصر، لعبد الله فكري وغانية الأندلس لخليل كامل وعواقب الطيش لحليم حلمي. والفتاة الشركسية لزكريا نامق.

ومما ألف سنة ١٨٩٩ : لا أتزوج ولو شنقوني، مسرحية هزلية لمؤلف مجهول وعدم الرضا ونفاذ القضا، لعبد اللطيف شكري.

ومن المسرحيات التي عربت في الفترة من سنة ١٨٩٧ – ١٩٠٢. المركيزه بلانش، عربها عن الفرنسية بديع عزوز وردة، تعريب مُحَمَّد مسعود، الخيانة والوفاء عربها خليل نقاش المهندس المصري تعريب ميخائيل فرج شرك الهوي، عربها عن الإنجليزية يعقوب منصور المنياوي. غرام الملوك تعريب ديمتري نقولا. ثارات العرب، عربها عن الفرنسية نجيب الحداد.

وبعد أن مدت شركة الترام خط الساحل، بدأت بعض المسارح تنتقل صيفا إلى روض الفرج.

***

وظهر فن النقد المسرحي ، وأخذ ينضج على ممر الأيام نتيجة للتقدم الثقافي ويبدو أن إقبال الجمهور على ارتياد المسارح عقب إنشاء الترام؛ جعل الفرق التمثيلية تتنافس في كسب المتفرجين دون أن يكون لديها استعداد سليم . ودفعها التنافس إلى اختيار مسرحيات هزلية مجونية، تدور كلها حول الحب ومغامرات العشاق وتنتهي برقص مبتذل تقوم به راقصات مومسات، اتخذن هذا الفن وسيلة لإشباع شهواتهن، وابتزاز أموال الشبان الأغرار قالت صحيفة الإخلاص (١٧-٧-١٨٩٧) :"... ومما زاد الطين بلة أن بعض أصحاب أجواق التمثيل العربي لا يميزون بين الطيب والخبيث، ولا يدركون سر واجبات فنهم الشريف فبينما هم يمثلون فصلا أدبيا يعلمون فيه واجبات المرء في هذه الدنيا، ويظهرون به العيب والنقائص التي يجب تجنبها ويمدحون محاسن الفضائل والكمالات ويحضون على اتباعها، نراهم قد أتوا في مسرح التمثيل التهذيبي بما تخجل منه الآداب من رقص مبتذل ومناظر تشمئز منها النفوس الأبية، ويدعون أن ذلك تفكهه للمتفرجين فهم بذلك يدسون السم في الدسم، لا يفرقون بين مراسح التهذيب ، ومحلات الرذائل وإن حجنا أحد أن التمثيل الأوربي قد يعقبه فصل رقص ، فأجيبه إن عوائدنا الشرقية تخالف عوائدهم. وإن الرقص المصري مبتذل ومنظره شنيع لا يستحسنه إلا من ضرب الجهل

أطنابه على قمة رأسه فأعماه ، سيما وأن الراقصات المصريات هن من المومسات اللواتي لم يتخذن هذا الفن إلا قضاء لشهواتهن وإيقاع الشبان الجهلاء في شباكهن ليسلبن مالهم ".

وقد دافع إسكندر فرح عن الروايات المجونية بمقال[1] جاء فيه "..
وأما اعتراض البعض على أن تلك الروايات كلها غرامية تلحينية، وبعضها مجونية خالية من الفائدة المطلوبة ، فلا محل له ، لأن أكثرها معربة عن الغربيين ، ولا يزال غالبها يمثل حتى الآن وفضلا عن أن جلها منطو تحته حكم ومواعظ بليغة، فإنها هي الروايات التي مهد بها الغربيون للشعب سبيل الوصول إلى الدرجة اللائقة".

وقال بعض الناقدين إن معظم المسرحيات التي تمثل بعيدة كل البعد عن تصوير البيئة المصرية كتب فؤاد سليم في المؤيد (٦-٣-١٩٠٦) مقالا جاء فيه "أما القول بأننا معشر المصريين في حاجة عظمى إلى روايات عصرية مصرية أو عربية، تمثل عوائدنا وأخلاقنا، فهو قول لا نبخسه نصيبه من الصحة ولا ننكر أنه أكبر حجر في أساس الإصلاح التمثيلي".

والذي يهمنا أن نثبته في هذا المقام هو:

١- ظهور نشاط مسرحي كبير بعد وجود الترام.

---

(١)المؤيد في ٢٩-١٠-١٩٠٥

٢- ظهور النقد المسرحي ، واهتمام الصحف بنشر المقالات الضافية في هذا الموضوع

٣- ظهور مسرحيات كثيرة

وقد اتخذ التمثيل وسيلة لإذكاء الروح الوطني، والدعوة إلى الجهاد المحتلين فتنبهت سلطات الاحتلال إلى ذلك فصدرت " لائحة [١] التياترات " في ١٩-٧-١٩١١ وضعت بمقتضاها المسارح تحت رقابة الشرطة " يخصص مكان موافق لضابط البوليس المنوط بالمراقبة وقت التمثيل" وخولت اللائحة لرجال الشرطة حق إغلاق المسرح إذا عرض فيه ما يخالف النظام العام والآداب وفي ذلك يقول [٢] طه حسين:

أخذوا على الصحف الطريق وأرهقوا	كتابها بالضيم والإذلال
وعدا على التمثيل من غلوائهم	عاد فآذن ظله بزوال
نقموا على التمثيل نطق ممثل	فيه يلفظه كامل وكمال
فاهتاج هائجهم عليه وأغلقوا	أبوابه من غير ما إسهال

***

(١)المقطم في ١٩-٧-١٩١١

(٢)مجلة الهداية عدد دسمبر سنة ١٩١٠

وكثرت صالات الغناء واشتهر من المغنين في العصر الترامي: عبده الحامولي[١] وسلامة حجازي[٢] ويوسف المنيلاوي، وصالح عبد الحي ومُحَّد عثمان ، وملك سرور، وصالح العربي، ومريم مراد، وبعد وجود الترام جاء إلى القاهرة شاب لم يكن معروفا من قبل ، وهو سيد درويش.

وألفت كتب كثيرة عن الغناء والتلحين، نذكر منها: الموسيقي الشرقي لكامل الخلعي ، سنة ١٨٩٩ – نزهة الزمان ، يتضمن تلحين عبده الحامولي ومُحَّد عثمان سنة ١٩٠١ – مطرب الأكامل وتلحين الأفاضل، لحسن فريد، وجمع فيه أحسن الأغاني العصرية وتوقيعاتها سنة ١٩٠١ – الموسيقي والغناء، لنقولا رزق شحاته ، شرح فيه القواعد الصوتية والقوانين والعلامات الموسيقية ، والأدوار الشجية الرائقة لتمرين الطلاب على الترتيل " التلحين" والموسيقي، سنة ١٩٠١– نيل الأرب في موسيقي الإفرنج والعرب، أحمد أمين الدبك، ضمنه كلاما عن الموسيقي والأصوات والعلامات الموسيقية ، ثم حلاه بالرسوم والأشكال التي تبين مقاصده ، سنة ١٩٠٢ – المغني المصري ، لمحمود حمدي البولاقي يتضمن كثيرا من الأدوار والألحان، مع بيان نغماتها، وشرح قواعد فن الموسيقي سنة ١٩٠٣.

---

(١)مات سنة ١٩٠١

(٢)مات سنة ١٩١٧

(٥) مات سنة ١٩١١

الترام والحركة الرياضية

نشطت الحركة الرياضية ، وتألفت فرق كثيرة في المدارس الثانوية والابتدائية والصناعية، إلى جانب فرق من طلبة المدرسة الحربية، وظهرت أندية رياضية لمختلف أنواع الرياضة . وتيسر إقامة حفلات تتباري فيها الفرق المدرسية.

وقد جرت مباراة[(١)] بين المدرسة الخديوية والتوفيقية في **١٨٩٧/١١/٢٧** وكانت الغلبة للتوفيقية . فلم يرق ذلك في أعين طلبة الخديوية والمنتصرين لهم فاشتد الهرج واللجاج ، ونسبوا التحيز والمحاباة للحكم . وكان يعقوب أرتين باشا وكيل نظارة المعارف حاضرا، فتدخل وصالح الفريقين. وابتدأت المباراة من جديد ، ففازت التوفيقية. وانتهي اللعب بما لم تحمد عقباه، إذ انهال المغلوبون على الغالبين بالسب والشتم، وكان طلبة التوفيقية قد أعدوا مائدة شاي فرفض طلبة الخديوية أن يتناولوه، وسخط ناظرهم مستر اليوت. وفي صباح اليوم التالي دعا الناظر المذكور أعضاء الفرقة وألقي عليهم خطبة خلاصتها: إني أيها التلاميذ في غاية الكدر والحنق من الأعمال المنافية للتربية والآداب التي ظهرت منك أثناء اللعب، وكانت الباعث على خجلي الشديد، وكدري العظيم.

---

(١) المؤيد في ٢٨-١١-١٨٩٧

فأولا: تطاولتم بالسب والشتم على رجل أحضرناه بصفة حكم بينكم وبين طلبة مدرسة التوفيقية وتهمتموه بالتحيز ضدكم، مع أنه من أصحاب النزاهة والعدل،ومع أن الغلب في اللعب ليس عارا ولا سبة.

وثانيا: إنكم رفضتم شرب الشاي الذي قدمه لكم إخوانكم في المدرسة التوفيقية، بمثابة توثيق عري المحبة والوداد. وكان هذا وذاك دليلين على سوء التربية، وكفي بهما عارا وموجبا لكدري وخجلي وفي ٢١ يناير سنة ١٨٩٨ جري احتفال رياضي عظيم، تباري فيه تلاميذ المدارس الأميرية في سباق المسافات القصيرة والطويلة ، وشد الحبل، وحمل الأثقال ، والقفز وهم داخل أكياس ، واقتحام الحواجز وغير ذلك.

ويبدو أن المحتلين أرادوا أن يبعدوا الطلبة من الاشتغال بالسياسة ، فلم يجدوا شيئا أنفع في هذا المقام من توجيه اهتمام الشباب المتعلم إلى الألعاب الرياضية وإقامة الحفلات ليتباري فيها التلاميذ ، وبذلك تنشأ أحزاب رياضية، حزب يتعصب لهذا الفريق، وحزب يتعصب لذلك، وهكذا يحدث انقسام ، وتتولد عداوات وتنشب خصومات قالت صحيفة المؤيد (٢٢-١-١٨٩٨) " ما لبثنا أن رأينا دروس الرياضة البدنية فوق كل واجب سواها، فأصبحت شغل التلاميذ الشاغل، وموضوع محادثاتهم في خلال الدروس، وأوقات الراحة، بالمدرسة وخارجها . وأهملت المذاكرة إهمالا يثبته فشلهم المتواتر في امتحان نوال الشهادة الثانوية. ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد، فقد ابتدأت عوامل النفرة والشقاق تتولد بين

طلبة كل مدرسة وأخرى مبارية لها في السباق، بل بين طلبة المدرسة الواحدة".

وكان رأي كرومر أن مصر ليست في حاجة إلى مدارس، وإنما يكفيها كتاتيب تعلم فيها " القراءة والكتابة والحساب مع الالتفات إلى الرياضة البدنية" ولم يكن الشعب ليقبل ذلك . قال أحمد شوقي مخاطبا كرومر:

هل من نداك على المدارس أنها

تذر العلوم وتأخذ الفتبولا؟

الأدب الترامي

يمكننا أن نطلق اسم " الأدب الترامي" على ما ظهر من شعر ونثر ، باللغة الفصيحة ، أو العامية الدارجة، في الفترة من أغسطس سنة ١٨٩٦ إلى بدء الحرب العالمية الأولي في أغسطس سنة ١٩١٤ ، لأن هذا الأدب كان انعكاسا صادقا لبيئة القاهرة التي تطورت تطورا سريعا على أثر وجود الترام. ودراسة هذا الأدب هي النتيجة التي نخرج بها من الفصول المتقدمة. على أن الدراسة التفصيلية تحتاج إلى مجلد ضخم. فلذلك سنكتفي بدراسة موجزة والأدب الترامي نوعان : أدب تصويري ، وهو الذي صور البيئة الجديدة، وما فيها من خير وشر ، وخلاعة ومجون، وعداوة وخصام ، وتقدم وتأخر وغير ذلك . وأدب إرشادي، وهو الذي يهدف إلى النهوض بالأمة ، ويضع لها المعالم في طريق نهضتها ، ويحذر ويبصر، ويحفز الهمم والعزائم. وسنبدأ الكلام على النوع الأول.

الأدب التصويري

١ - هجاء الترام ومدحه

عز على قوم من المصريين أن تقوم شركة أجنبية بإنشاء الترام ، فحملوا على الحكومة حملات عنيفة، وقالوا إنها " غبنت[١] رعاياها غبنا فاضحا في منحها امتياز الترامواي إلى شركة أجنبية ، وقبولها استخدام الكهربائية بدلا من الخيل في تشغيل هذه الخطوط. وأن الحكومة لو حفظت هذا الامتياز لرعاياها الذين يستظلون بظلها ، ويعيشون في حماها ، ويقومون بنفقاتها، وأبقت الخيل بدلا من الكهربائية ، لعاد على المصريين من وراء ذلك فائدة كبرى ومنافع جسيمة، تكاد لا تعد ولا تحصي . ثم صوبوا إليها سهام النقد والتعنيف، وشددوا عليها النكير".

فرد عليهم كاتب بصحيفة الأخبار (٢٩-٩-١٨٩٦) بمقال جاء فيه:

"... أما قول المعترضين بأن استخدام الخيل لتشغيل تلك الخطوط كان أفيد وأنفع من الكهربائية ، فهو قول يفسده العلم والتجربة وناموس الكائنات والغاية المقصودة من وضع الترامواي هي تسهيل النقل وتقريب

(١) الأخبار في ٢٩-٩-١٨٩٦

المسافات ، وتخفيف النفقات والكهربائية هي أضمن طريقة للوصول إلى ذلك".

وقد دافع الكاتب عن الحكومة فقال " إن الحكومة أعلنت عن مشروع الترامواي بدل المرة ثلاث مرات، وتركت المهندسين والمقاولين وقتا كافيا لدرس هذا المشروع، وإمعان النظر في أصوله وفصوله، حتى يقدموا شروطهم عن خبرة كاملة وإطلاع كاف. أما الأهالي فلم نسمع عنهم أنهم ألفوا شركة للحصول على هذا الامتياز، أو سعوا سعيا مفيدا وراءه، أو كلفوا أحدا من العارفين بمثل هذه الأمور أن يطلع على شروط الحكومة ويبدي لهم رأيه فيها. لا، بل كنا نراهم يردون من فاتحهم بمثل هذا الكلام خائبا كاسفا، قائلين إننا قوم أطيان وأقطان، ونحن راضون بما أوتينا، وفي القناعة غنيمة".

أما السبب الثاني الذي جعل فريقا من الناس يسخطون على شركة الترام، فهو أنها لما حددت أجرة التذكرة في الدرجة الثانية بأربعة مليمات، وفي الدرجة الأولي بستة، لم يكن مع قاطعي التذاكر مليمات تكفي لدفعها للركاب الذين يسددون ثمن التذكرة قطعة من فئة الخمسة مليمات أو العشرة ويطلبون الباقي. فكانت تقوم مشاحنات بينهم وبين قاطعي التذاكر لهذا السبب. وحينئذ تجد الصحف مادة للطعن في الشركة والتشنيع عليها.

والسبب الثالث هو وقوع حوادث يذهب ضحيتها بعض المواطنين ويلقي اللوم فيها دائما على سائقي الشركة، وبالحق أو بالباطل.

وكان بعض الصحفيين يرغبون في الحصول على اشتراكات مجانية، تبيح لهم الانتقال على جميع الخطوط، أو يريدون تعيين قريب أو صديق فإذا لم يجابوا إلى مطالبهم سخروا أقلامهم ضد الشركة. وتصيدوا لها الأخطاء، وادعوا أنها تظلم عمالها وتهضم حقوقهم ، بينما هي تربح الأموال الطائلة.

بعد أسبوع واحد من تسيير الترام صدم طفلا فمزق جسمه إربا وقضي عليه في الحال. وقد فزع سكان العاصمة لهذا الحادث وانتهز بعض الأدباء الفرصة،فانهالوا على الترام هجوما وسبا. وقالوا إن عزرائيل يمشي من خلفه متهيئا لقبض الأرواح. وقد أصدر محمود خاطر نشرة [(١)] خاصة سماها " النشرة الكهربائية" خصصها لحوادث الترام، وما يجري من مشاجرات بين قاطعي التذاكر والسائقين ، وبين الجمهور. ومما جاء في مركبة الكهرباء:

تمشي وعزرائيل من خلفها

مشمر الأردان للقبض

(١)لم نعثر على هذه النشرة في دار الكتب. وما أوردته هنا فهو منقول عن المقطم في ٣٠-٨-١٨٩٦

وقد ظل المحامون مدة طويلة إذا ترافعوا في قضية ضد الشركة لصالح أحد المواطنين ، يبدأون مرافعتهم بهذا البيت.

وقالت صحيفة الشرق (٢٦-١٢-١٨٩٦) " لا يمر بنا أسبوع واحد حتى نسمع من حوادث الترامواي الكهربائي بمصر أخبارا مكدرة ، فتدهس هذا، وتصدم ذاك . وما من يسأل عن أرواح العباد. وخصوصا العجزة والأولاد الذين أصبحوا بمرورهم على الشوارع الممتدة عليها خطوط الترامواي معرضين لخطر الموت دهسا، أو الكسر ارتطاما، ولم نر سائلا يسأل الشركة، فكأن الحكومة السنية غافلة عن هذه الحوادث المكدرة ، أ، أنها لا تقدر أن تعاقب الشركة لكونها أجنبية، فتركت التقادير تجري في أعنتها ، كما تركت الشركة حرية المسير لمركباتها وسائقيها ، فتسرح وتمرح في شوارع العاصمة بدون انتباه ولا التفات إلى من أمامها من العمي والعجائز والأولاد".

وقالت صحيفة الأخبار (١٢-١٢-١٨٩٦) تحت عنوان " شرور الترامواي" " رخصت الأرواح ، فافتتح ركوب عربات الترامواي بابا لبيعها وشرائها. فكأن الترامواي بعرباته عنترة العبسي بفرسه وسيفه إذ قال:

حصاني كان دلال المنايا ... فخاض عمارها وشري وباعا
وسيفي كان في الهيجا طبيبا ... يداوي رأس من يشكو الصداعا

فالتراموي هو البطل المغوار، الذي يخوض بركابه غمرات الموت من العباسية إلى ضواحي مصر، شجاع مطلق الأعنة، جموح لا يعبأ بأقوال الجرائد، ولا يثني زمامه غير أمر الشركة التي اكتسبت من خوضه هذه الغامرات الأصفر الرنان، الذي ينسي ويلهي كما ينسي الشيطان. ولو أنشئت جريدة في هذه العاصمة لسرد حوادث التراماواي اليومية لملأت أعمدتها كل يوم بأخباره، ولا تتعطل إلا إذا ركب مخبروها التراماواي".

وقال إلياس حنيكاتي تحت عنوان " التراماواي[1] الكهربائي"

إن الترامــواي علــى القــاهرة	مصـــيبة يا قومنـــا قـــاهره
فكـــم قلـــوب هالهـــا رهبـــة	وكــم نفـــوس غالهـــا طـــاهره
وكــم وكــم أيــد بــه قطعــت	وأرجــل أضــحت بــه طــائره
يجــري وعزرائيــل مــن خلفــه	يمـــد للقـــبض يـــدا غـــادره
في كـــل يـــوم شـــره دائـــر	ليـــت عليـــه دارت الـــدائرة
هنــاك ثكلــي جرعــت حســرة	تشـــكو وفي أحوالهـــا حـــائرة
تنـــتفض الرعـــدة في جســـمها	وعينهـــا نحـــو ابنهـــا ناظـــره
لــيس لهــا يا قــوم مــن منصــف	لا ناصـــرا تلقـــي ولا ناصـــره
كــأنني بالعــدل قــد مــات أو	قضـــي عليهـــا أنهـــا جـــائرة
أجارهـــا الله فـــلا غـــيره	يجـــير نفســـا حـــرة صـــابرة

(١) المقطم في ٢٥-٣-١٨٩٨

فيا رجال الضبط مضابطكم وأين الأعين الساهرة؟
ما شرف الدنيا بشئ إذا لم يتبعه شرف الآخره

هذه نظرة بعض الأدباء إلى الترام، وهي نظرة ضيقة من غير شك ، لأن الترام له طريق محدد ، لا يستطيع أن يحيد عنه يمينا أو يسارا، كما تفعل عربات الخيل ، فكان ينبغي على الناس أن يراعوا النظام ويتأنوا في سيرهم ، ويتلفتوا جيدا قبل عبور الشوارع. وعلى كل حال فقد كان السائقون مصريين ، وكانت الشرطة تحقق معهم. وتأمر النيابة بحبسهم إلى أن يصدر القضاء حكمه عليهم. فلم تكن المسألة فوضي كما حاول هؤلاء الأدباء أن يصوروها.

بل إن بعض الكتاب تجاوز النقد إلى التهكم والسخرية. انظر إلى ما جاء في الأخبار (٢٨-٨-١٨٩٧) تحت عنوان " نيشان ربطة الذراع" " هو نيشان جديد، وضعته شركة الترامواي لمكافأة المستخدمين الذين أمضوا سنة كاملة في خدمتها، وهو كناية عن شريطة زرقاء ، بعضها المستخدم على ذراعه في وقت الشغل ، دلالة على قدم عهده في خدمة هذه الشركة، ولكن البقالين والخبازين والجزارين لم يصادقوا بعد على هذا النيشان، ولا يزالون يطلبون من مستخدمي الترامواي أن يدفعوا نقدا ثمن مأكولاتهم فيا حبذا لو أن هذه الشركة أبدلت هذه الشريطة التي تهزأ بها على مستخدميها وعلى الناس أجمعين بزيادة في رواتب هؤلاء المنكودي الحظ، الذين أدي بهم نحسهم إلى خدمة هذه الشركة التي عدمت الشفقة والرأفة من قلوب أصحابها".

فماذا يهم الجمهور من قرار أصدرته الشركة يقضي بأن يضع كل عامل من عمالها شريطا على ذراعه؟ بالطبع لا شئ يهمه من ذلك ، ولكن كاتب المقال انتهزها فرصة لحاجة في نفسه وكتب ما كتب. وما علاقة البقالين والجزارين والخبازين بهذا الشريط؟ ثم من الذي أقامه مدافعا عن حقوق العمال بهذه الصورة التي توغر الصدور؟

***

وإذا كان بعض ذوي الأغراض قد شنعوا هذا التشنيع ، فإن الشركة لم تعدم المنصفين. كتب أديب في صحيفة الرائد المصري (١٦-٤-١٨٩٧) مقالا جاء فيه " إن الناظر إلى عربات الترامواي تنساب على الخطوط الحديدية الممتدة في شوارع العاصمة، وهي مثقلة بالركاب ، بأقل الأجور ، ولا يسعه إلا أن يحكم بفضل المشروع، وبأن الحكومة التي أجازت العمل في زمنها والشركة التي أقدمت عليه، قد طوقتا جيد هذه المدينة وسكانها بالجميل والمنة".

وحينما أضرب عمال الترام في سنة ١٩٠٨ واختفت القطارات من الشوارع عانت الجماهير بلاء كبيرا قالت صحيفة اللواء (٢٠-١١-١٩٠٨).

" لبثنا اليومين الماضيين، والإنسان يظن أن سكان مدينة القاهرة قد زاد عددهم فاكتظت بهم الشوارع والأرصفة، بل صار السائر في الطريق يلتطم بهذا ، ويختلط بذاك ، ومن كثرة الرائحين والغادين ، لأن

الترام قد توقف عن العمل بسبب اعتصاب عماله، ففضل الفقير السير على الأقدام عن ركوب العربات ومشي مريحا نفسه من استبداد الحوذية خصوصا في أيام كثير فيها الطلب. حقا إن للترام فضلا لا ينكره إلا ناكر للجميل. وقد لاحظنا أن أصحاب الأعمال الوقتية التي تستدعي كثرة الجولان في المدينة تعطلت أعمالهم تقريبا، وستعطل إذا لم يتكبد صاحب الحاجة مشقة صرف مبالغ كثيرة أجرا للمركبات ، بينا نري البوليس قد أهمل أمرا واجبا ، وترك الحال على غاربها ، فأطلق الحواذي عنان طمعه وإلحافه ، بل قلة أدبه، وكثرة سبابه للراكبين، وإلزاما لهم بدفع الأجر أجرين . وكم شكا إلينا أشخاص عوقبوا بدفع غرامات باهظة أجرة لركوبهم المركبات، حتى كادت أجور تزيد على الضعف ".

وهذا الكلام حتى لا ريب فيه، صدر من صحيفة محترمة تنطق بلسان الحزب الوطني، مما يبعد الشبهة عنه، وقد أعطانا الكاتب صورة بشعة لاستغلال الحوذيين للجماهير، وانتهازهم الفرصة لإشباع طمعهم. وتطاولهم على الناس بالسب والشتم، لإرغامهم على دفع الأجر أجرين. واضطرار الفقير إلى قطع المسافات الطويلة سيرا على قدميه.

و" قصد[1] أحد الأدباء زيارة صديق له ، فركب الترامواي ، ولكنه لم يجده ، فنظم الأبيات التالية:

تحملـــني إلى مغنـــاك ســـاري بـــلا خيـــل يســـير ولا بخـــار

(١) المقطم في ١٨-٢-١٩١٤

بباري الريح إسراعا ويطوي عروض الأرض آناء النهار
ليوصل بين أنحاء شتات يقارب بينها قرب الجوار
تحري خط مجراه فما إن يحيد إلى اليمين أو اليسار
ركبت به فأمعن مستهاما كما انساب المرقش من نفار
كأن به من الأشواق مثلي فليس بهادئ دون المزار
فلما جاء موقفه نزلنا نسائل من نراه عن الديار
فأوصلنا الدليل إلى بناء تجلل بالمهابة والوقار
سألنا أين سيده فقالوا توجه مصر من بدء النهار
فعدت إلى الترام بغير حظي وأودعت الكتاب لخير قاري

فهذا الشاعر معجب بالترام كل الإعجاب ، لأنه لا يحتاج إلى خيل تجره؛ ولا إلى بخار يسيره . ومن دواعي إعجابه بالترام أنه يسير بسرعة فائقة حتى كأنه يسابق الرياح ، فيطوي الأرض ليوصل بين جهات متباعدة بعضها عن بعض ، فيجعلها كأنها متجاورة، بعد أن ألغي المسافات بينها. وهذا الترام تجري عجلاته على الخطوط الحديدية الموضوعة لها، وهو ملتزم بها، لا ينحرف يمينا أو يسارا. وهو ينساب مسرعا كما تنساب الحية ممن يطاردها. وكأنه مشتاق، أضناه الشوق، ولوع به الغرام ، فلا يهدأ ولا يقر له قرار إلا إذا وصل إلى من يحب.

نلاحظ في هذه الأبيات وجود تعاطف بين الشاعر والترام، تعاطف ينم عن حبه له، حبا جعله يشخصه في صورة حية، فالترام شخص عاقل،

يتحري حظ مجراه ويلتزم به ، وهو بذلك لا يصدم أحدا ولا يلحق ضررا بإنسان وهو عاشق ولهان ، ينطلق إلى عشيقته في غير تمهل.

***

وقد مر بنا في غير هذا الموضع أن عربات الأمنيبوس لم تختف بظهور الترام، بل استمرت في عملها، وأدخل أصحابها عليها تحسينات وساعد على ذلك أن الحكومة بدأت منذ مطلع القرن العشرين تعني بأمر الشوارع وتتوسع في تعبيدها ورصفها. وقد تخيل كاتب أن الترام منزعج من عربات الأمنيبوس ، متضايق من وجودها فكتب إليها رسالة، عنوانها " من الترامواي التعيس، إلى عربات الأمنيبيس" هذا نصها:

يا عجوز الشوم، وداهية خيبر.

مضي على حين من الدهر، وأنا أخطر في الشوارع كما يخطر النسيم. وأتهادى في سيري كما يتهادي الغصن السليم. فمنظري بديع، ومقامي رفيع، وعرباتي نظيفة، وحركاتي خفيفة تقصدني ربات الحجال ، وتترامي على خيار الرجال. وكل في مكانه يقيم، لا يتعداه إلى محل الحريم، ولبثت على هذا الحال وأنا في السراء، حتى ظهرت يا عجوز بالدهاء. فحملت جميع الأجناس في مكان واحد. وأبحت للناس حرية الجلوس في

المقاعد. فكنت تسيرين وقد التفت الساق بالساق. وتزاحمت الأقدام وضاق النطاق. [1]

غمز ولمز، وهز ورمز. وتعارف وائتلاف ، وتناكر واختلاف ، إلى غير ذلك من الفصول والمناظر التي تذهب الفكر وتحير الخاطر. ومن جراء هذه التقريرات هجرني الجميع إلى تلك العربات ، فصرت أغدو وأروح ، صباح مساء، ولا من يقصدني من الرجال والنساء. عرباتي أفرغ من فؤاد عمالي. وعجلاتي تدهس الناس من ضيق أحوالي ، لمزاحمتك إياي في كل الطرقات ومشاركتي في جميع المحطات وطالما صبرت عليك صبر الكرام، وانتظرت تغيير خطتك يا بنت الحرام، حتى ضاق الخناق ، وبلغت الروح التراق. وأنت تفسحين أمكنة التبصيص، وتوسعين مجال التهجيص. وصرت مرسحا لمغازلة العيون الفواتر، ومحطا لاصطياد الحرائر، فجئتك بهذا الكتاب يا عتيقة، ولا أنتظر الجواب عليه دقيقة. فإن أجبت بما يفيد الاعتدال والإقلاع عن هذه الخصال ، تركتك على حالك. وإن كان غير ذلك فلابد من دهسك ودهس عمالك".

في هذه الرسالة دفاع عن الترام إذ فيه مكان خاص بالنساء ، وهو متسع بخلاف عربات الأمنيبوس التي يجلس فيها الرجال إلى جانب النساء، وتلتف الساق بالساق، ومع ذلك فإن الكتاب لم يشنعوا على هذه العربات ، وإنما كان تشنيعهم دائما موجها إلى الترام.

---

(١) الخلاعة في ١٢-١١-١٩٠٤

٢ - شبان العصر الترامي

كان شبان العصر الترامي –كما صورهم الأدب– يبالغون في التأنق والزخرف والزينة، كتب أديب من الأرياف جاء إلى القاهرة في شتاء سنة ١٩٠٢ ، يصف ما رآه من أحوال الشبان الترامیین :" هؤلاء[١] زمرة من الشبان الأحداث، تفننوا في تحسين هندامهم ، واخترعوا الأزياء المختلفة الألوان ، التي لم يسبقهم فيها سابق. وعلى هذا يدور حديثهم ، ولا يشغلهم غير زي جديد – مودة– واختراع حديث في التفاصيل وجل أماني كل شاب أن يكون أحسن من صاحبه في الزي، وألطف في الشكل لينال الإعجاب ، ويكون حظه التفاخر على الأقران يا للعجب ! ما هؤلاء الذين يسيرون ، ووجوههم ممسوخة، وأزياؤهم غريبة مختلفة في اللون والشكل، يمرحون في الطرق، ويجولون في الشوارع من غير معارض، ويقابلون الناس بالمزاح والملاعبة".

وهذا الكلام ينطبق على أبناء الأغنياء ومتوسطي الحال. أما أبناء الفقراء فلم يكن في مقدورهم أن يفعلوا شيئا مما ذكره الكاتب في مقاله المتقدم، وعلى كل حال فإن موازين النقد تتغير تبعا لتغير الزمان. فهناك أشياء كثيرة كانت في ذلك الوقت مما تعاب على الشبان كلبس الحذاء الملون اللامع ، وكالمواظبة على حلق اللحية كل يوم أو يومين، أو حلق الشارب، أو ارتداء قميص بياقة عريضة مفتوح من أعلي الصدر. أو اتخاذ

(١) المؤيد في ٤-٣-١٩٠٢.

ساعة اليد لأن لها سوارا يشبه سوار المرأة . أو ارتداء الملابس ذات اللون الفاتح. أو إطالة شعر الرأس وترجيله. وكذلك ارتداء السراويل المخزقة والسترات المشقوقة من الخلف. كل هذا كان يجعل الشبان مخنثين في نظر أدباء العصر الترامي. وصحيح إن الشبان كانوا يسيرون جماعات ، يضحكون ويعبثون ، وليس هذا مما يعاب عليهم، أو يحط من منزلتهم لقد اتخذ أدباء هذا العصر من سلوك الشبان مادة خصبة شغلوا بها أنفسهم، كما شغلوا الرأي العام بها. قال مصطفي صادق الرافعي تحت عنوان " التمدن[1] الأنثوي".

أري فئـــة كالغانيـــات تـــدلا ... تميـــل مـــع الأهـــواء كـــل مميـــل

تخـال الفـتي مـنهم علـى ظلمـة النهى ، ... لألـــوان ثوبيـــه سمـــاء أصـــيل

وظـن الفـتي أن التمـدن أنثـوي ... فتـــابع فيـــه كـــل ذات حليـــل

تمـاجن في أشـكالها مـن مصـبغ ... إلى كـــل مجلـــو وكـــل صـــقيل

إلى اللفظ حتى ما تكاد شفاهه ... تبـين بلفـظ منـه غـير نحيـل

إلى اللحظ حتى ما تكاد جفونه ... تطـارح لحظـا منـه غـير عليـل

أولئـك هـم شـبابنا لـو عرفتمـو ... وهم كل من في مصر غير قليل

قالت صحيفة المؤيد (٣٠-٣-١٩٠٨) " هذا ما وصف به الرافعي شباننا وكلامه يصدق على بعض من يتأنقون في الزينة، فيصففون شعورهم، ويخففون خدودهم ، وينغمون بأصواتهم، وربما مزجوا كلامهم

(١)المؤيد في ٢٠-٢-١٩٠٨

ببعض الألفاظ الإفرنجية، ويختارون من الألبسة آخر زي، من صدرة ملونة مخرمة، صنعت من القطيفة المزركشة ، وسترة مشقوقة، وسراويل ضيقة، وخاتم ماس في اليد ، وعصا عقافتها من الذهب، وحذاء ملوناً ملمعاً، وطربوشاً مكوياً. عبقت منهم رائحة الطيوب والعطورن وقد حرصوا على الأزياء حرصهم على أعز الأشياء. إن من شبابنا من يصرفون ساعتين كل يوم في التبرج كأنهم بعض النساء يتزين لبعولتهن. جارينا الغربيين في التبرج والتزين بعد أن كانا غير معهودين في الشرق غير المخنثين. إن الرجل منا قد يصرف على لباسه نصف دخله فيستلف ويمطل، ويهون عليه ما يأتي ولو با ع الطين، ورهن العقارن ليلبس كل أسبوع بل كل يوم بدلة جديدة، كأنه من نساء الأغنياء في نيويورك".

والسر في تأنق الشبان أنهم كانوا يتنقلون بين محطات الترام لاصطياد النساء. ولا شك أن الأناقة سلاح فعال في هذا الصدد، لأنها تدل على الغنى، فتنخدع المرأة وتسير مع الشاب. وكان يكفي أن يصدم الشاب المرأة بكتفه حتى تتبعه إلى حيث يشاء. وفي هذا المعنى يقول أحمد شوقي:

نظـرة فابتسـامة فـــــــــسلام فـــــكلام فـــموعد فلقـــاء

فـاتقوا الله في قلـوب العـذارى فالعـــذارى قلـــوبهن هـــواء

***

وقد حمل المشهورون من شعراء ذلك العصر الدعوة إلى شرب الخمر، فكانوا بذلك قدوة سيئة للشبان. فقال أحمد شوقي:

رمضان ولى هاتها يا ساقي	مشتاقة تسعى إلى ما مشتاق
ما كان أكثره على ألافها	وأقله في طاعة الأخلاق
الله غفار الذنوب جميعها	إن كان ثم من الذنوب بواق
بالأمس قد كنا سجيني طاعة	واليوم من العيد بالإطلاق
ضحكت من السرور ولم تزل	بنت الكروم كريمة الأعراق
هات اسقينهاغير ذات عواقب	حتى نراع لصيحة الصفاق[1]
صرفا اسقينها مسلطة الشعاع كأنما	من وجنتيك تدار والأحداق
حمراء أو صفراء إن كريمها	كالغيد، كل مليحه بمذاق
لا تسقني إلا دهاقا إنني	أسقي بكأس في الهموم دهاق[2]
فلعل سلطان المدامة مخرجي	من عالم لم يحو غير نفاق

نشرت هذه القصيدة في صدر صحيفة المؤيد في اليوم الثلاثين من شهر رمضان سنة ١٣٢١هـ الموافق ١٩ – ١٢ ١٩٠٣ وهذا الشعر اعكاس الترامية الماجنة التي أباحت لأحمد شوقي أن يطلع على الناس وهم ما زالوا صائمين متحدثاً عن فرحته وابتهاجه بانقضاء شهر رمضان الذي كان طويلاًةومملاً بالنسبة لرجل سكير مثله، وترك نفسه على سجيتها. ومن المؤكد أن الشاعر نظم قصيدته قبل نهاية رمضان ببضعة أيام. فإن كان صائماً فكيف أقدم على التغني بمحاسن الخمر في أبيات كثيرة تشوق

---

(١) الصفاق: الديك. يقول اسقني الخمر حتى مطلع الفجر.

(٢) الكأس الدهاق: الكأس المملوء إلى نهايته.

القارئ لشربها؟ إن هذا الشعر لا يصدر إلا من رجل مخمور، فإذا قال إنه كان سجين طاعة فهو قطعاً غير صادق. وأقبح من هذا قوله:

الله غفـــــــــار للذنوب جميعا   إن كـان ثم مـن الـذنوب بـواق

وقوله:

فلعـل سـلطان المدامـة مخرجـي   مـن عـالم لم يحـو غـير نفـاق

لأنه في هذين البيتين أعطى مبرر للعصاة لارتكاب هذه لفاحشة، فإذا لامهم لائم قالوا إن الله غفار رحيم، أنهم يتعاطون الخمر ليهربوا من عالم مليء بالخداع والنفاق والرياء.

وقوله في قصيدة أخرى:

آذار أقبـل قـم بنـا يا صـاح   حـي الربيـع حديقـة الأفـراح
واجمع نـدامى الظرف تحت لوائه   وانشـر بسـاحته بسـاط الـراح
صفو أتيح فخذ لنفسك قسطها   فالصـفو لـيس علـى المـدى بمتـاح
واجلس بضاحكة الرياض مصفقا   لتجـــاوب الأوتار والأقـــداح
واستأنســن مــن الســقاة برفقــة   غــر كأمثــال النجــوم صــباح
واجعل صبوحك في البكور وسيلة   للمنجـــين: الكـــرم والتفـــاح

الخ ....

فإذا أقبل شبان العصر الترامي على السكر والعربدة، فلهم العذر كل العذر، لأن البيئة كانت فاسدة، وساعد على نشر الفساد مثل هذا الشعر الذي يحبب إلى النفس ارتكاب المعاصي، ويزينلا الانغماس في الشهواتن واغتنام أوقات الصفاء وأيام الشباب التي لا تعوض، وبخاصة إذا كان قائل هذا الشعر هو شاعر هو شاعر الخديوي، والناس على دين ملوكهم. ولأحمد شوقي شعر كثير في التغني بأوصاف الخمر، والدعوة إلى شربها.

وكتب مصطفى لطفي المنفلوطي تحت عنوان "المرقص".[١]

" إن كنت لم تسمع في حياتك أن فداناً واحداً من الأرض يبتلع في جوفه ستة ملايين من الأفدنة، فاعلم أنه المرقص الذي يأكل وحده جميع ما تنبته تربة مصر من الخيرات والبركات. فكأنه العين التي تسمع الفضاء بأرضه وسمائه، أو القلب الذي يجعل في سويدائه ما كان وما يكون".

"رأيت الدنانير ذائبة في الكئوس والعقول جامدة في الرءوس، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب، والسهام مسددة لاصطياد القلوب. ورأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلاً وأذكاهم قلباً، ومن كنت أراه فأغضي بين يديه إجلالاً وإكباراً، واقعاً في حبالة بغي، تقيمه وتقعده، وتطويه وتنشره، تعبث به عبث الطفلة بلعبتها. وهو في غير هذا المكان قيصر الرومان عزة وفخاراً، وكسرى فارس أنفة واستكباراً".

---

[١] النظرات ٣\١٤١– التجارية.

" رأيت من يزعم أن الله قدر وهبه عقلاً يخترق أشعة حجب الغيب، يجهل قضية من القضايا الأولية، التي يشترك في فهمها الأذكياء والأغبياء، والعلماء والجهلاء. رأيته يجلس في المرقص فتمر به البغي، فما هي إلا لمحة طرف، أو غمزه كتف، حتى تحدثه نفسه أنه قد وقع من نفسها، وملأ فراغ قلبها، فيدعوها غليه فتجلس بجانبه، فما هي إلا ابتسامة خالية، أو كلمة كاذبة، حتى يقسم بكل محرجة من الأيمان أن نفسه صادقة فيما حدثته، وأن الفتاة قد علقت

به علوقاً لا نجاة لها من بعده إلى يوم يبعثون".

"هناك يبذل لها ما يشاء من نفسه وشرفه وماله، ويرى أن ذلك قليل في جانب ما تبذل له من دقائق تقضيها بين يديه، وابتسامات تجود بها عليه.

والله لا يبلغ العدو منا بخيله ورجله وأساطيله وقنابله، ولا الأرض بزلالها وبراكينها ما يبلغ منا هذا المرقص ببغاياه".

أجاد المنفلوطي في وصف مظاهر الفساد والانحلال التي انتشرت بين كافة طبقات الأمة خلال العصر الترامي. ووجد فيها مادة خصبة حية، فتدفق قلمه بالعبارات البليغة والأساليب الجميلة التي تأخذ بمجامع القلوب. وهو هنا يعطينا صورة لبعض ما كان عليه الحكام، من غطرسة وتكبر وكبرياء وادعاء ذكاء وعلم، فإذا هم يضعفون ويتضاءلون أمام بغي لا في العير ولا في النفير، حتى يبدوا كالأطفال غفلة وسذاجة.

وقال شاعر لم يذكر اسمه:

يمــت شــطر الأزبكيــة علــني ... أمحوهـا بعـض الهمـوم وأمحـق
ودخلـت أجمـل قهـوة مـع صـاحب ... صـادفته وأخـو الهمـوم موفـق
وجلست إذ جلس الصديق ولاتسل ... عمـا حـواه المجلـس المتـأنق
قـد زينـت بالكهـربا أرجـاؤه ... حتى كأن الشمس منه تشرق
وأجمـع إلى هـذا الجمـال أوانسـا ... يـبرزن للقلـب الخلـي فيعشـق
ولقـد تكلفـت الحـديث وصـاحبي ... في شـاغل يونـو لهـن ويطـرق
يشـكو الهـوى سـراً وخـاطر فكـره ... وجـداً يغـرب تارة ويشـرق
حـتى دنـت مـن بيـنهم مليحـة ... بلحاظهـا ترمي القلوب وترشق
فتـنفس الصـعداء لمـا أقبلـت ... وفـؤاده وجـداً بهـا يتمـزق
جلسـت بجانبـه فخـامره الهـوى ... وأخـو الصـبابة باهتـك أخلـق
قالـت لـه: مـاذا تريـد؟ أبـيرة؟ ... فأجاب: لا، كنياك، ذلك أوفق
وإذا سمحـت فجالسـينا لحظـة ... ثم اطلـبي مـا تشـتهين فـأنفق
فتهللـت فرحـاً وأسـرعت الخطـا ... مدفوعـة فكأنمـا هـي زئبـق
ثم انثنـت مـن بعـد ذا وبكفهـا ... خمـر تـذوب بها القلوب وتحرق
خمـر معتقـة ولكـن الـذي ... يحيـا بهـا عبـد لهـا لا يعتـق
ولقـد نصـحت إلى الصـديق وكلمـا ... محضـته نصـي يثـور ويحنـق
فتركتهـا بفنونهـا وتركتـه ... بجنونـه وهـو الجنـون
فـإذا همـا يتغـامزان وصـاحبي ... بادي الهمـوم وفكـره متفـرق

واسترجعت فأتت وقد لمحت على ... إحدى يديه خاتماً يتألق

إن كنت تهوى، أين تذكار الهوى؟ ... يا أيها المتلون المتملق

مدت بأسرع ما يكون لكفه ... يدها فأعدها فقامت تحنق

وجرت فأمسك ثوبها وأعادها ... والأشعبية لا ترق وترفق

وأدار رنات الكئوس فأرشكت ... روحي تذوب لهول ذاك وترفق

وعجبت من هذا الذي شاهدته ... فكتمته والصدر مني ضيق

حتى دنا الميعاد فانصرف الورى ... وهو الذي فيه الملاهي تغلق

وبدت مصابيح المحلة تنطفي ... شيئاً فشيئاً والظلام يحلق

فتعجلته على الحساب ودفعه ... والهم يحتاط الفؤاد ويحدق

فرمى لها عشراً من الذهب الذي ... يرنو له قلب الفقير فيخفق

ثم أنثى فتكلفت توديعه ... والغر يحسبهت تحب وتصدق

فتبعته عدواً لم أعثر به ... وأنا أحدق في الدجى وأحقق

وإذا به قطع الطريق له على ... قدميه وه يكاد غيظاً يصعق

فعجبت من نشق الشباب وفعله ... كذلك يفتقر الغني الأحمق

فهذه القصيدة تحكي قصة واقعية مما كان يحدث للشبان في ذلك العصر، في الحانات والمراقص، وكانت كلها ملكاً للأروام والإيطاليين، يحتمون بالامتيازات، وينصبون الشباك للمغفلين ليسلبوهم أمواله، فيغتني هؤلاء الأجانب ويفتقر المصريون. قالت مجلة المصريون (١٦-٧-١٨٩٨)

"...فبينما نرى الشبان الغربيين يقضون ثمين الوقت في تعلم الصناعات المفيدة،والفنون الجليلة،نجد الكثير من شباننا الذين هم رجال الغد حيارى سكارى في الخانات والمقامر، فيفقدون في ساعة واحدة ما حصلوا عليه بشق الأنفس ومواصلة الليل بالنهار، أو ما سهر على تحصيله آباؤهم. فمن أعظم آفات الشبان في مصر المقامرة والإنفاق على الخليعات، وهما آفتان قد خربتا البيوت العامرة، وأضاعتا الأموال الوافرة ولم تزل كالسوس ينحر عظام الهيئة الاجتماعية المصرية".

وكان الخديوي عباس يقيم في قصر عابدين حفلة راقصة في كل شتاء، يدعو إليها نحو ألفين من كبار الأجانب والوطنيين، رجالاً ونساء. وتطلع الصحف بوصف تلك الليلة، وما دار فيها من رقص، وما شرب من خمر. قالت صحيفة اللواء (٢٧-١-١٩٠٢) تحت عنوان "الباللو الخديوي".

"ما بابل في موكبها وعند أكبر مآدبها، ولا الإيوان وكسرى قائم يؤلم في النيروز الولائم، ولا الحمراء إذ الأيام أيامها، والدهر غلامها، وإذ يموج بها العرب بين الوقار والطلب، ولا الخورنق ولا السدير في يوم مهرجان كبير، ولا الليالي الرشيديات على دجلة والفرات بأحسن تصويراً في خيال الشاعر، ولا ألطف حضوراً في خاطر الناثر في قصر عابدين في ليلة هذا الباللو المأنوس".

ثم قالت "... فلما كانت الساعة العاشرة من الليل أقبل المدعوون مواكب تترى آتية من كل مكان. وقد أخذت السيدات للباللو زينته، ولبسن له أفخر الثياب والجواهر، كأنهن نيرات على الأرض زواهر. هناك وقفنا وما في فتنة النظر شك لمن حضر، ولا منها حذر. يمر بنا اللؤلؤ المنثور من تلك الحاكيات الحور، تراهن أمثال النيرات، منتظمات في العين منتثرات قريبات للنواظر بعيدات. تأخذهن العيون مقبلاتن ويأخذن القلوب مقبلات مدبرات. مائسات عن قناً وغصون، ملتفتات عن جنات وعيون، مكشوفات السواعد والأكتاف عن لجين، باسمات عن الدر سمطين سمطين".

" وهناك صدحت الموسيقى بتحية صاحب الدعوة الأكرم، ثم ألقت ألوانها بالنغم في هذا المزدحم، فإذا هو على قدم، أخذت اليد باليد. ودار الساعد بالساعد، والتفت الساق بالساق، وانبرى الراقصون والراقصات تثبين تارة، واندفع الواثبون والواثبات، مجتمعين آونة، متفرقين آونة، متهادنين تارة، متواثبين تارة. وآناً يذهبون ذات اليمين وذات الشمال، وآناً تراهم كالعقد المفصلين بين كل لؤلؤتين من ربات الحجال خرزة من الرجال. فكنت ترى القامات عند اهتزاز بأنها كأنها الألفات في عين لا قرار لإنسانها. تمصل دفعة واحدة كالغصون مع الريح مائلات، ثم أستقيم دفعة واحدة كالقنا في مراكزها صافات

ثم تستدير فتريك خروج الأقمار من الهالات".

"وفي الساعة الثانية عشرة فتحت قاعات الموائد، وشرف الجناب العالي البوفيه الأكبر فتناول شيئاً من المرطبات، داعياً بذلك جماعات المدعوين إلى هني الشراب، وشهي الطعام. فأقبلوا على خوان ممدود، و حوض مورود، وكرم وجود، وحديث على ابنة العنقود. ينبسط لهم الخوان كيفما داروا، ويدنو لهم بعيده أينما توجهوا، و كأنه البحر لا يزحم ولا تنقص أطرافه. جمع من الأواني كسرويها، ومن الفاكهة جنبها، ومن اللحوم شهيها، و من الخمر بابليها، و من المرطبات تزكيها".

وكانت بعض المجلات الصغيرة تنتهز هذه الفرصة فتحمل على الخديوي حملات عنيفة ، وتصفه بأنه يضرب مثلا سيئاً للشبان. قالت مجلة العجائب (١٢ – ٢ – ١٩٠٢) "أتدري أيها المصري، ويأيها المسلم ماذا يجري في هذه الليلة؟ يجرى فيها ما يحمر منه وجه الإسلام خجلاً، و يصفر من منظره وجه الدين وجلاً. يجري فيها ما نلوم عليه الشبان، ونشكو منه في كل زمان ومكان يجرى الرقص على أنواعه، والسكر على أشكاله.

"بأي دين يدين الخديويون؟ بدين الإسلام؟ وهل هذا الدين يبيح محاصرة الفيذ، ومنادمة الحسان؟ وهل هذا الدين يبيح هذه الخمرة التي تمد على مائدة المدعوين؟ وهل هذا الدين يبيح هذه النفقات الباهظة التي تنفق على هذه الليلة؟ بالأمس كنا نبكي من محلات الرقص، وننوح من معاهد الخمر، ونستغيث بالأمير، ونستنجد به أن يهتم بإزالتها، فلم نشعر إلا وسموه أقام للرقص معهدً، وللخمر مائدة"؟

"ماذا نقول للشبان؟ وماذا نعيد للفتيان؟ هل لنا لسان نقدر أن نخاطبهم بالامتناع عن محلات الرقص؟ أم هل لنا قلم نقدر أن نفوقه عليهم ليجتنبوا محلات الخمور، وأمير البلاد، وسيد الحكومة المصرية يقيم في سراي الإمارة الرقص، ويمد الشراب؟

إذا كـان رب البيـت بالـدف ضـارباً   فلا تلم الفتيان يوماً على الرقص

أيها الشبان، ويأيها الفتيان، نستغفركم ونتوب إليكم من تندقنا بكم، وتبكيتنا لأعمالكم. ارقصوا، ارقصوا. واشربوا و اطربوا. وإن سألكم مولا كم عن هذه المخالفات ، فأمامكم سراى عابدين ترد عنكم الجواب ، وتناقش بدلكم الحساب".

وعرضت مجلة الصاعقة[1] ليلة راقصة أحييت في شتاء سنة ١٩٠٤ فقالت تحت عنوان "ليلة في قصر نائب الخليفة" "لو قام مُحَمَّد من القبر ، وحوله شهداء بدر ، وشاهد ما حدث البارحة من القصف في القصر ، ورأى شوقي وهو يصف الليلة بأنها حسنة الدهر ، وليلة القدر ، وسمع الناس يتحدثون بثنائه ويعجبون بغريب إطرائه . وأبصر تلك الدائرة ، وقد اختلط فيها الرجال بالنساء، وهم من تأثير الصهباء يثبون في الهواء ، وقد جذبت الأيدي الخصور إلى الصدور ، ومالت على الأكتاد[2] الأعناق ، والتفت الساق بالساق ، وتكسرت الجفون ، وذبلت العيون . وقد أظهرن

---

[1] الصاعقة في ٢٢-١-١٩٠٤

[2] الاكتاد، جمع كتد، وهو مجمع الكتفين.

ما أخفينه طول الدهر من الصدر إلى النحر ، ليظهرن بهذا التبرج بمظهر الجمال في أعين الرجال . ورأى جماعة وقد انتحوا ناحية بملابسهم المقصبة ، وعمائمهم المذهبة ، وهم يمدحون واحدة لفرط جمالها ، و يذمون أخرى لشدة قبحها . ويقولون : أنأخذ بقول الله قل للمؤمنين ، الآية ، و نترك قول العرب : اليوم خمر ، وغداً أمر ؟ لا، والله ، لا كان هذا . لو رأي كل هذا رسول الله لحول وجهه عنهم ، ولحلف بالله أن لا يشفع لأحدهم ، و لعاد إلى قبره مهرولا ، وهو يقرأ قول الله تعالى – فحق عليها القول فدمرناها تدميرا".

***

وسبق أن رأينا كيف انتشرت أندية القار ، و كيف كان الشبان ينفقون ثرواتهم داخل هذه الأندية . وقد كان هذا الموضوع الشغل الشاغل لكتاب العصر الترامي وشعرائه . قالت مجلة المنار (٥– ١٠ – ١٩٠٠) تحت عنوان "القمار في الكبار والصغار" "القمار آفة الكسب ، وجائحة المال ، و مفسدة الأعمال ، و ميكروب الكسل ، ومجلبة الزلل . ولقد ابتلى به المصريون ابتلاء أفقر أغنياءهم ، وأذل كبرياء من أصيب به منهم . وكل مصري يعلم أن بلاء المضاربات في هذه السنة كان أشد من بلاء انخفاض ماء النيل ، ونقص غلة الأرض . وليس من غرضنا الآن شرح مصائبه ، و بيان خسائره ، وإنما الغرض التنبيه على أن الفقراء والمساكين قلدوا الأمراء والأغنياء في هذه الموبقة ، كما هي سنة الكون ، فأدخلوا المقامرة في كل الخسائس والمحقرات ، حتى تجد باعة الفستق لا يبيعون الآن

بالدراهم، وإنما يأخذ أحدهم قبضة ويسأل مريد الشراء : أزوج أم فرد ؟ فإن جاء عددها كما يقول المالك ، أخذ ثمنها مضاعفا ، وإلا أعطاها مجاناً . وهكذا يجني الكبراء على سائر الناس ، وهم الذين يخربون البلاد ، ويهلكون العباد".

وظهرت في هذا البصر أنواع من ألعاب المقامرة لم تكن معروفة من قبل ، وهي التي تشاهد اليوم في ساحات الموالد ، كما انتشرت أوراق النصيب التي تصدرها الجمعيات الخيرية . ودارت على الألسنة عبارة «المائدة الخضراء »

كناية عن العب القمار . وأقبل كثيرون على الرهان في سباق الخيل . ولم يتخلف كاتب ولا شاعر عاش في تلك الفترة إلا تناول موضوع القرار حتى يمكننا أن نجمع مايؤلف مجلداً ضخماً مما قيل في هذا الباب ، هذا علاوة على المسرحيات الكثيرة التي ألفت أو ترجمت ، وكلما تبين مضار القمار بأوضح عبارة ، وأفصح إشارة . قال إمام[1] العبد :

راح يلهو وجاء يبكي الديارا ... رب دمع يكاد يشعل نارا

كان أغنى الأنام في الدهر ليلا ... فغدا أفقر الأنام نهارا

أيها السائر الكثير الأماني ... بين أعدائه وقيت ؟؟؟

إن من يغرس الأماني جهلاً ... بين جنبيه لا يذوق ثمارا

---

[1] المقطم في ١٨-٥-١٩٠٥

رب خمر تضيء كالنور في الكأ س لعـــين وتطفـــئ الأعمـــارا
بعـت في حلبـة الرهـان ضـميرا وجـــلالا و عــــزة ووقـــارا
ليـت شـعري مـاذا جنتـه اليـالي فتـــذم الزمـــان والأقـــدارا ؟
تنشـد المـال بـين بـؤس ونحـس وتــود الغــنى وتهــوى القمــارا
أنــت أنكــى مــن الجـراد بمصــر ولــو إن الجـــراد ســـد القفــارا
إن مـن يأكـل النبـات اضـطرارا مثـل مـن يأكـل النضـار اغـترارا

في هذه القصيدة صورة شاب كان غنياً ، يعيش سعيداً، آمناً مطمئناً، ولكنه لم يقنع بما يملك ، بل أراد أن يزيد ثروته عن طريق الكسب الحرام ، فمال إلى القمار ، تحدوه هذه الأماني الكاذبة ، فلم يلبث أن خسر ثروته، ورجع يبكي وينتحب ، ويلعن الزمان ، ويسخط على الدنيا ، وكان جديرا به أن يلوم نفسه ويؤنبها ، لأن تفكيره السقيم هو الذي أوصله إلى هذه النتيجة المؤلمة .

٣ - النقائض السياسية

لما اتسعت دائرة الحركة الوطنية إثر إنشاء الترام، انقسم الشعراء في مصر إلى فرقتين : الفرقة الحميدية ، وهي التي تنظم قصائد المدح في السلطان عبد الحميد ومدح نائبه في مصر الخديوي عباس ، والفرقة الإحتلالية التي كانت ترد على الفرقة الأولى وتنقض قصائدها بما تنظم في مدح ملك الإنجليز ، ومدح نائبه كرومر . وكان احتفال المصريين بعيد جلوس السلطان عبد الحميد ، يقابله احتفال الإحتلاليين بعيد جلوس

ملك الإنجليز. وبعبارة أدق إن مدح عبد الحميد أو عباس أو احتفال المصريين عموماً بعيد عبد الحميد، لم يكن هدفاً في حد ذاته ، وإنما كان الغرض منه إغاظة المحتلين وأعوانهم، وتحديهم والتشنيع عليهم . ومن الأمثلة لهذه النقائض قصيدة[1] أحمد شوقي التي مدح بها عباس ، والتي يقول فيها:

ما كنت أوتر أن تطول سلامتي ... فأرى المعالي حلية الأوغاد

وأرى الأعادي في البلاد موالياً ... وأرى الموالى في البلاد أعادي

وأيادي المتقدمين مساوئاً ... ومساوئ المتأخرين أيادي

وأرى بني وطن تفرق بينهم ... أيدى العداة وألسن الحساد

وأشد من وقع المصاب على الفتى ... ذكر المصاب على لسان عادي

عباس إنك للبلاد وإنه ... لم يبقى غيرك من يقول بلادي

لولاك لم نعر المواسم نظرة ... كلا ولم نقبل على الأعياد

شطت بنا فلك الأمور فكن لنا ... وفي بحر حياتنا المنار الهادي

وكن السعود الطاردات نحوسنا ... الغاديات بنفحة الإمداد

يأتي الشقاء على البلاد وينقضي ... وشقاء مصر مؤبد الآباد

وأرى مصيبة كل قوم غيرهم ... ورأى مصيبتنا من الأفراد

من كل أرعن كاذب لايرتجي ... لعداوة يوماً ولا لوداد

ملأت ملابسه المظاهر مثلما ... ملأ الدخان جوانب النطاد

---

[1] المؤيد في ٢٨-٤-١٨٩٨

ومنها :

مـولاي وابـق الـدهر أسـلم سـام	وتلـــق اعيـــاداً علـــى أعيـــاد
تـــؤتي رعيتـــك الوفيـــة ســـؤلها	وتبلـــغ الأوطـــان كـــل مـــراد
وتطهـــر الســـودان مـــن آفاتـــه	وتقيمـــه في الأمـــن والإســـعاد
وتبيـــد ملـــك الـــذاهبين بعـــزة	الصـــائرين بســـوقه لكســـاد
سـلطت في تأديـبهم رعـداً علـى	رعـــد وجـــلاداً علـــى جـــلاد
فانـــدك بغيهمـــو ببغـــي مثلـــه	والله للبـــــالغين بالمرصـــــاد

ما كادت صحيفة المؤيد تطلع بهذه القصيدة حتى تلقفتها الأيدي ، وأصبحت حديث الناس في الأندية والمجالس ، لما فيها من تعريض بالمحتلين وأعوانهم وحينئذ شمرت الفرقة الإحتلالية عن سواعدها ، واستعدت للرد ، ومهدت لذاك بمقالين نشرا بصحيفة المقطم في ١٨٩٨/٤/٣٠ المقال الأول تحت عنوان " السياسة في الشعر " وقد جاء فيه " إذا ارتكب الشاعر الخطأ

عمداً فذم أهل القطر كله لكي يمدح أميرهم، وتشاءم بالخراب والدمار إلى الأبد، وهو يرى دلائل النجاح والإسعاد قد أنطقت الأبكم، وأسمعت الجماد ، فلا ندري كيف نلتمس له عذرا . فقد قرأنا له أمس تهنئة للحضرة الخديوية بعيد الأضحى قال فيها:

عباس إنك للبلاد الخ ...

تالله إني لم أتم تلاوة هذا البيت حتى قلت في نفسي : هل هو متملق أخلا البلاد من الوطنيين ، والحكومة من المخلصين حتى قال : وأرى الأعادي في البلاد موالياً ...

هكذا تنظم السياسة في سلك القريض ، وهكذا يعرب شاعر المعية عن آراء رجالها ، وهكذا يصف هو ورفاقه رجال البلاد الذين اشتهروا وارتقوا في عهد أميره" . والمقال الثاني تحت عنوان " مصيبتنا ومصيبة غيرهم " وهو لا يختلف عن المقال الأول . وأخيراً انبرى الشاعر عبد العزيز عزت فنقض قصيدة شوقي بقصيدة نشرتها المقطم في (٦ – ٥ – ١٨٩٨) وهي :

نـــور الحقيقـــة للبريـــة بادي	والحـــق لا يخفـــى علـــى الـــرواد
لكنمـا العـي اسـتمال ذوي الهـوى	والغـــي يعمـــي أعـــين الأضـــداد
ســيان عنــدهم القبــيح وضــده	ولـذا اسـتوى بكـاؤهم والشـادى
والـنفس تعوزهـا قيـود الفضـل مـا	خشـيت رواشــق أســهم النقــاد
فمـــتى سمعـــت بأن نجحـــا مـــرة	صدع القلوب وفت في الأعضاد؟
والـدهر إن هنـا فريقـاً أصـبحت	فئـــة لـــذاك قريحـــة الأكبـــاد
جهـل تقـادم عهـده فسـرت لهـم	أضـــــراره في النســـــل والأولاد
حـتى إذا وضـح السـبيل ترفعـوا	عـــن أن يبلـــوا داعـــي الإرشـــاد
وإذا أضـــل الله أفئـــدة علـــى	علـم فلـيس يـرى لهـا مـن هـادي
وإذا ابتلـــى الله الـــبلاد بمقلـــق	كانـــت بليتهـــا مـــن الحســـاد

إن الفراعنة الألى زرعوا الأذى   في الأرض قاد بادوا إبادة عاد

من بعد ما ابتزوا النفيس وواصلوا   حصد النفوس بمنجل الإفساد

والناس تصعق ضيقة ورءوسهم   للمرهقين تشد كالأوتاد

كادا ونير الذل في أعناقهم   يتعثرون بأثقل الأصفاد

والموت أشفى والحياة مذمة   في الإطهاد لأنفس الأمجاد

ما كان إلا ريثما عظم البلا   وأتى الزمان لهم بخير عماد

أحيا مواتهمو بينبوع الحيا   لا تعجبوا لتزاحم الوراد

فانشر نضارك دون خوف مصادر   في حالة الإصدار والإيراد

وأفلح حقولك آمنا وممتعاً   بنتيجة الإتعاب والإجهاد

هذه بلاد الله يورثها الذي   يختار، ما أحد يقول بلادي

والأرض كانت قبل قاعاً صفصفاً   وجميعها ليست بذات حصاد

والناس تتركها مخافة جائر   لا تستطيع ترد عنها العادي

وتود أوجرة الذئاب لعلها   تجد الحنان بمرتع الآساد

والفوز في الدنيا على جيش الصعا   ب بحكمة الرؤساء والقواد

جاءت براهين الحوادث جمة   عند الكبار صحيحة الإسناد

لبست لها السودان ثوب البيض إذ   لقيت سواداً ساد فوق سواد

زلطالما امتنعت على طلابها   زمناً وقل تردد العواد

لولا إساءات الزمان لأصبحت   تلك المنازل كعبة القصاد

خاض الكماة غمارها وتدرعوا   ليل الجعاج بنور قدح زناد

لا غرو أن تدع السيوف قلوبهم ... بالخوف ملأى وهي في الأغماد

لا يطعن الجمال في عزماتهم ... فهي الجسام تجل عن تعداد

لولا مناجزة الرجال كما رأوا ... بلجاجة الإرغاء والإزباد

بمظاهرات كلها عرضية ... لم تجن غير زيادة الأحقاد

ومناوئ الصعب المراس سفاهة ... بالقول ليس له صحيح مبادى

يرجون إدراك المحال وإنه ... لا يرتجي آل الضحى للصادي[1]

فعسى غيابات السخائم تنجلي ... وكفى من النوام طول رقاد

وازن عبد العزيز عزت بين حالة البلاد قبل الاحتلال وبعده . فقال إن الناس لم يكونوا يأمنون على أملاكهم وأموالهم وأرواحهم ، بل كانوا يهرعون ويختبئون في الكهوف والمغارات مع الوحوش . وأن البلاد خربت بعد أن ملك الحرث والنسل ، بفعل المظالم الكثيرة التي وقعت على الشعب . وقد تبدلت

هذه الحال بعد الاحتلال ، فأصبح الإنسان آمنا على حياته وأملاكه وأمواله ، متمتعاً بالهدوء والطمأنينة . وأن مصر بلاد الله بورثها من يشاء من عباده ، وليست بلاد عباس ولا غيره. وأن السودان كان قد عمه الخراب ، وها هم الإنجليز يجدون في القضاء على دولة الدراويش ، ويعيدون إليه الأمن والرخاء. وقال إن الذي يطعن في أعمال الإنجليز ، أو

---

[1] آل الضحى: سراب الضحى. الصادي: العطشان

ينتقص من قدرهم ، أو يبخسهم حقهم ، إنما هو جاهل ، أو جاحد ، لا يصح أن يلتفت إليه.

والرد على هذه المزاعم ليس بالأمر العسير ، فقد جاء في تقرير كروم[1]

عن سنة ١٨٩٥ ما نصه " استدان فلاح من أهل الوجه القبلي ١٠ ج من مداين أوربي ، وكتب له سنداً بمبلغ ١٥ ج وقال إنه دفع إليه كل سنة ٥ ج على ثلاث سنوات .. وبعد انتهاء السنة الثالثة طالبة المداين بالخمسة عشر جنيهاً ، فأبى دفعها ، قائلاً إني دفعت ١٥ ج ، ولكن لم تكتب بينهما أوراق غير السند المذكور آنفاً ، فلذلك لم يمكن المديون إثبات قوله . فتوعده المداين بإقامة القضية عليه . وإقامة القضية تكون بمصر ، على بعد ٤٠٠ ميل من مكان الدان والمدين . فاختار المدين أن يبيع منزله على الدخول في قضية ، فاشترى الدائن المنزل بالثمن الذي عينه ، وهو ٦١ جنيهاً ، وأسقط منها ١٥ ج قيمة الدين ، ١٤ ج رسم البيع ونقل الملكية ، ودفع إليه الباقي وقدره ٣٢ ج، فيظهر مما تقدم أن المدين اضطر أن يبيع بيته بمبلغ لا بد أن يكون أقل من قيمته الأصلية ، ودفع ٣٤ جنيها فائدة ورسوماً شرعية على دين قيمته ١٥ جنيه المدة ثلاث سنوات ».

---

[1] المقطم في ٢٥-٣-١٨٩٦

"وأيضا إن رجلاً من أهل مديرية المنوفية أقيمت عليه الدعوى في دين قدره ٤٢٣١ قرشاً صاغاً ، فبلغت نفقات القضية وحدها ٤٩٢٠ قرشاً صاغاً . وأمثال ذلك كثير"

هذا ما ذكره كرومر في تقريره و هو لا يحتاج إلى تعليق . جاء في صحيفة المؤيد (١٩ - ١٠ - ١٩٠٠) ما نصه " شاهدت على ضفاف البحر الصغير في سفري إلى المنصورة مزارع واسعة ، وأبنية فخيمة ، وأجراناً تحوطها الخيرات والبركات . فقيل لي إنها لرجل من شطار اليونان ، لم يكن رأس ماله منذ بضع سنوات أكثر من سبعين خنزيراً ، أخذ لها فداناً من الأرض ترعى فيه وترتع فصار يبيع من نتاجها ويقرض صغار الفلاحين حوله ، ثم تعداه إلى كبارهم .

وهكذا حتى ضم إلى حوزته جملة قرى وبلاد ، أكثر أهلها من مدينيه . وأكثر أراضيها -ما لم يملكه- مرهونة له . فهي وهم في الحقيقة ملكه و عبيده الذين يشقون ليسعد، ويفتقرون ليغني ، ويضنون ليشتد " .

وقالت صحيفة المؤيد (٢٤ - ١٠ - ١٩٠٠)، "ترك الإنجليز كل مراب داخل البلاد يفترس بجماعة من الفلاحين المساكين ، غير هياب لسلطة ، ولا خائف من قانون ، مع إجماع كل الناس على أن هؤلاء المرابين ما أطغاهم إلا إهمال السلطة القانونية ، حتى كأنهم في بلاد فوضى ، لا حكومة لها . لولا الإهمال ما كان الميسر ومحلات الخلاعة المتناهية تنهب جيوب الناس وعقولهم نهباً على رءوس الأشهاد، و من وراء هذه المحلات

تؤخذ العزب ، وتشترى الألوف المؤلفة من الأفدنة الزراعية . وكل هذا الإهمال جره اتخاذ الإنجليز محاباة الأجانب عضداً لهم ، لتأييد قدم احتلالهم في هذا القطر الأسيف . فما أسعد الأجنبي في مصر ، وما أشقى المصري في بلده على أيدي الإنجليز " .

اتجاهات الفرقة الإحتلالية هذه الحقائق المؤلمة ، واستمرت في ردها على الفرقة الحميدية . مثال ذلك قول أحمد نسيم مهنئاً كرومر بعودته من الصعيد، بعد زيارة خزان أسوان :

سر حيث شئت يحفك الإكرام ... فبلاد مصر تحية وسلام
أحيت مائتها وصنت حقوقها ... فلذاتك الإجلال والإعظام
وطفقت تفتقد البلاد وأهلها ... حتى استقام العدل والحكام
ساويت بين كبيرها وصغيرها ... بالحق فالإنصاف منك لزام
وحفظت عرش أميرها من بعدما ... لعبت به في الحادثات طغام
وقطعت أيدي الظلم بالقانون وال ... قانون في كف الحكيم حسام
ونشرت دستور العدالة بيننا[1] ... فالأمن فوق رؤسنا أعلام
لا حاكم يقسو ، ولا متعنت ... يهفو ولأحق الضعيف يسام
فتصافح الأهلون في بحبوحة ... يحنو على آرامها الضرغام
يا ناصر الإصلاح ، بل يامنقذ ال ... فلاح من جور له آلام

[1] (١) المقطم في ٢٢ – ٢ ١٩٠٢

مـالي سـوى نشـر الحقيقـة بغيـة وسـوى الحقيقـة لـو يـرام حـرام
إني أخاطـب فيـك دولتـك الـتي عنـت الوجـوه لهـا وذل إلهـام
آليت أن أطرى خلالك ما حييـ ت فـإن أمـت فلتشـكرنك عظـام
سـافرت للخـزان تقصـد نفعنـا كرمـاً وآثار الكـرام جسـام
ورجعـت بالبشـرى فهنـأ بعضـنا بعضـاً بخـير مـا بـه إيهـام
هـذي ديار ترتجيـك لنفعهـا ولأنـك نعـم الفاضـل المقـدام
أقوالـك الأفعـال في إصـلاحها وكـلام غـيرك في الـبلاد كـلام
سافر وعد، واسمح وجد واحكم وسد واعمـر وشـد، وارشـد فأنـت إمـام

فانظر كيف أسند الشاعر إلى كرومر من الصفات والمناقب والفضائل ما يجعل الخديوي وكأنه لا وجود له، فكرومر أحيا الأرض بما وفر لها من وسائل الري. ونشر العدل، فتساوى الكبير والصغير أمام القانون . وهو المصلح ، و منقذ الفلاح مما كان يتعرض له من العسف والجور . ولذلك فمن الواجب أن يكون لكرومر الحكم والسيادة ، فلا حاكم ولا سيد إلا هو .

ولقد ظهر من النقاد من عابوا شمر المديح، وكان طعنهم موجهاً إلى الفرقة الحميدية، وعلى الأخص إمامها أحمد شوق. ولهؤلاء نقول إن الذين مدحوا عبد الحميد لم يروه، ولم يخصهم منه شيء، وكذلك الذين مدحوا عباس. ولقد كان في استطاعة أحمد شوقي أن يلتحق بوظيفة حكومية، وأن يصل إلى ما وصل إليه إسماعيل صبري. وقصائد الفرقة الحميدية لم تكن مدحاً خالصاً، وإنما كان يسودها الهجوم على الاحتلال وأعوانه. وقد كان

المدح الحميدي في ذلك الوقت ضرورة وطنية للرد على مزاعم الفرقة الإحتلالية.

ولما جاء أحمد عرابي من المنفى، ومدح الاحتلال وأطراه ، هجاه أحمد شوقي بقصيدة مطلعها:

صغار في الذهاب وفي الإياب ... أهذا كل شأنك يا عرابي؟

فرد[1] عليه مُحَّد توفيق بقصيدة جاء فيها:

إيابك سيدي خير الإياب ... فأهلاً مرحبا بك يا عرابي

ومنها:

ولكن ظن فيك السوء بعض ... وهذا البعض أولى بالسباب

حكومة سؤدد وسراة علم ... كعهدك إذ تحييك الطوابي

وإذ نازلت أبطالاً شداداً ... تطارده ركاباً في ركاب

ستنظر إن رفعت بمصر طرفاً ... رجال الوقت من خير الصحاب

ومصر بالسرور تطيب نفساً ... إذا ما قيل عاد لها عرابي

وهكذا كانت كل فرقة تترصد الأخرى وتتربص بها الدوائر. ولقد أسف بعض الشعراء الإحتلاليين، وجاءوا في نقائضهم بالعبارات النابية

---

[1] المقطم في ٢-١٠-١٩٠١.

والألفاظ القبيحة. مثال ذلك أنه لما نظم أحمد شوقي قصيدته التي مطلعها:

مال واحتجب وادعى الغضب

رد عليه شاعر لم يذكر اسمه فقال[1]:

قـــــام وانثـــــــنى　　　وادعــــــى الغــــــنى
فهــــــو كلمــــــا　　　قــــــــــال لي أنا
قلـــــت جاهـــــل　　　يعشــــــق الثنــــــا
إنــــــــه فـــــتى　　　طالمــــــا زنــــــى
نحــــــو فوقـــــه　　　وهــــــو تحتنــــــا
فهـــــــــــو إن نأى　　　وهـــــــــــو إن دنا
كلــــــه بـــــــلا　　　كلـــــــه عنــــــا
إن رأى فـــــــــتى　　　قـــــام وانحـــــنى

الخ...

في هذه الأبيات هجاء فاحش، تشمئز منه النفس، ويأباه الذوق، و يجنوه الطبع السليم. وهو أشبه بما نسمعه في الشوارع من الأوشاب والسفلة الذين لا أخلاق لهم. وانظر إلى ما نشرته الصاعقة في (٢- ٤ -

(١) الصاعقة في ٢-٤-١٩٠٤.

١٩٠٤) تحت عنوان " اقتراح " "تقترح الصاعقة على أدباء مصر في هذا العصر أن يبعثوا بتأويل هذا البيت المسجل في ديوان شاعر الأمير:

مولاي عبدك طائع فافعل به ما أنت فاعل ولمن يصيب المرمى في التأويل جائزة إرسال الصاعقة مجاناً، مادام له ولها عمر".

* * *

و من شعراء الغرفة الحميدية الذين أصابهم الهجاء المر، إمام العبد. ومما قيل[١] في هجائه:

في السوق بعت اليوم عبدا ساقطا ... ورجعت أشعر بالأذى للشاري

فأرحت من شؤم ابن داية منزلي ... أو ما سمعت نعيبه في داري؟

ونفضت من عار العبيد يدي التي ... قد لوثت منهم بقبح العار

وكحلت عيني بالثرى وتركتها ... رمداء خوف عمائها بالقار

ما كنت أوثر أن أكون مصاحباً ... للعبد لولا خدمة الزوار

قدر العبيد ولست أعرف قدرهم ... إلا على الأبواب والأستار

خانوا افترو افجرو ابغوا و تسابقوا ... لخيانة الأشراف والأحرار

فطروا على بث الوشاية في الورى ... واستؤجروا لإباحة الأسرار

وتوشحوا ثوب القيادة والخنا ... وتسربلوا بمذلة وصغار

أأقول عبد الله للعبد الذي ... يمسي ويصبح وهو عبد البار[١]؟

---

[١] الصاعقة في ٥-٣-١٩٠٦

يا أحقر العبدان حسبك تدعى ... شمما وأنت قرارة الأقذار

لم تدعي علما وتزعم بيننا ... فضلا وأنت مسبة الأغرار ؟

أيكون ذا أدب ورب فصاحة ... من بيع بالدرهام والدينار ؟

قد يحبسون السارقين وليتهم ... جعلوا السجون لسارق الأشعار

أنسيت في بولاق فراشا سطا ... ونزا عليك بمثل زند وارى

مازلت تركب كل شيء قائم ... حتى اجترأت على ركوب

في هذه القصيدة تعريض قبيح بإمام العبد من ناحية لونه، وأنه ينتمي إلى جنس العبيد، وأنه كان في حوزة الشاعر فباعه لشؤمه وسوء خلقه وتخاصمنه بهذه الطريقة، فبات مرتاح الخاطر، هادئ البال، ولكنه شعر بأنه الحق ضرراً من اشتراه. ثم جاءه من ناحية أخرى، فإمام العبد كان مدمناً على شرب الخمر، وقد هجاه بهذا، ثم اتهمه بسرقة الشعر. وأخيراً طعنه في عرضه.

ويدخل في هذا الباب القصائد الكثيرة التي قيلت في "عام الكف" و "عام الكفء" فقد كانت تخفي وراءها أغراضاً سياسية. وقد عرضت لهذين العامين وما قيل فيهما من شعر في كتابي "فصول ممتعة" ومما قيل في عام الكف تحت عنوان "بعض[٢] مناقب إبراهيم" والمراد إبراهيم المويلحي "اشتهر بسلوكه طريقاً غير طريق المؤمنين، وأنه يبيت أكثر لياليه في

---

[١] البار: الحانة

[٢] الكمال في ٢١-١١-١٩٠٢ ، مات إبراهيم المويلحي سنة ١٩٠٦.

الحمامات، ويقضي غالب أوقاته بين غلمان الأوتيلات لمداواة الداء، ولسان حاله يقول : دع عنك لومي فإن اللوم إغراء. وكان السواد الأعظم من أهل الأستانة حانقاً عليه، ولا يوجد فيهم واحد إلا وفي فؤاده أثر من أذاه، فاتفقوا على أن يتعقبوه بالضرب، ثم يجبوه، فتنقطع آلة خبثه، ويستريح الناس من شره".

ويدخل في هذا الباب أيضاً ما نظم من الهجاء في صحيفة المقطم الاحتلالية. مثال ذلك ما نشر[1] تحت عنوان "عزاء المقطم" بإمضاء ح ، ج ، وهو :

اليـــــوم ينتحـــــر المقطـــــم ... ويقـــــوم في مشـــــواه مــــأتم

ويشـــق صـــفحة خـــده نـــدماً ... ولات زمـــــــان منـــــــدم

كـــم حـــارب الـــوطن العـــز ... يـــز و باع صـــالحه بـــدرهم

ولطالمـــــا قلـــــب الحقـــــا ... ئـــق في سياســـته وأوهـــم

متعثـــــــــرا في رأيـــــــــه ... متورطـــــا في كـــــل مـــــأثم

ينســـاب في وســـط الحـــواد ... ث مثـــل مـــا ينســـاب أرقـــم

فيحـــل مـــن أقـــوى المـــرا ... فـــق والمراشـــد كـــل مـــبرم

ويثـــير مـــن بـــين المشـــا ... كـــل عثـــيراً بالشـــر أقـــتم

وإذا ارتـــدى ثـــوب النصـــو ... ح فـــإن منـــه الشـــهيد علقـــم

[1] خيال الظل في ١٨-٤-١٩٠٧.

مـــــا بالـــــــه متذبـــــــذبا ومعـــــدداً في كـــــل مـــــأتم

إن كــــــان ســـــوريا فمـــــا أقســـــى عواملـــــه وأظلـــــم

إن كــــــان مصـــــرياً فلـــــم في الكبـــــد أنجـــــد ثم أتهـــــم

أو كـــــان عبـــــد الإحـــــتلا ل فكيـــف ينصـــحنا ويـــرحم

مهـــــلا فقـــــد بـــــرح الخفـــــا وأســـــفر الســـــر المكـــــتم

واســـــتنزل المقـــــدور صـــــر عتـــــه وأرهقـــــه المحـــــتم

يا للتصـــــــــبر والمـــــــــزا اليـــــوم قـــــد ســـــقط المقطـــــم

نشرت هذه القصيدة بعد إقالة كرومر من منصبه. وفيها يظهر الشاعر الشماتة في صحيفة المقطم، و يشعر بها وبموقفها من المصالح الوطنية ومناصرتها للمحتلين.

وكانت قصيدة أحمد شوقي التي نظمها في وداع كرومر مسك الختام في حياته كأحد شعراء الفرقة الحميدية، إذ أن سياسة الوفاق التي اتبعها غورست مع الخديوي انعكست على شاعره فكف عن الخوض في مهاجمة الإنجليز، وبذلك فقدت هذه الفرقة أهميتها، وظهرت الفرقة الوطنية التي تهاجم الخديوي والإنجليز، ومن شعرائها: علي الغاياتي، وقد حكم عليه بالحبس سنة بتهمة الطعن في الخديوي، وعبد الحليم المصري، وقد حكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر بنفس التهمة. وقد اشتد الصراع بين الفرقة الوطنية والفرقة الاحتلالية، ثم قامت الحرب، فاختفت الفرقة الوطنية، وإلى هنا ينتهي كلامنا.

الأدب الإرشادي

عز على فريق من المفكرين أن يقفوا متفرجين ، بينما الأجانب يتوغلون يوماً بعد يوم في مرافق البلاد الاقتصادية ، وينبهون ثروتها في غير رحمة ولا شفقة . لذلك أخذوا يكتبون المقالات الضافية ، مشخصين الداء ، واصفين الدواء . مبصرين ومرشدين ، محفزين الهمم ، مستنهضين العزائم ، مطاردين اليأس ، باعثين الأمل في الصدور . أي أنهم كانوا يهدفون إلى خلق المواطن الصالح ، الذي يكافح ويناضل ، ويجد ويجتهد في ميدان العمل والنتاج حتى يلحق بالأجنبي إن لم يتفوق عليه . ولما كان المصريون يميلون إلى الإسراف في الإنفاق ، الأمر الذي يضطرهم إلى الاستدانة من المرابين ، وكلهم من الأجانب ومن ثم يفقدون أملاكهم ، فقد كان الكلام على قيمة المال وضرورة المحافظة عليه ، من أهم أغراض الأدب الإرشادي في العصر الترامي . مثال ذلك ما جاء في مجلة المنار (١٤-٦-١٨٩٨) تحت عنوان " القوة في المال " .

"نعم المعين على المروءة للفتى	مال يصون عن التبذل نفسه
لا شئ أنفع للفتى من ماله	يقضي حوائجه ويجلب أنسه
وإذا رمته يد الزمان بسهمه	غدت الدراهم دون ذلك ترسه

المال ، ولا أزيد القراء به علما ، من أعظم أسباب السعادة والرفاهة ، وبواعث السؤدد والمنعة والجاه. بل هو المحور الذي تدور عليه الأعمال ،

وتناط به الآمال ، وتحط عنده الرحال ، وتوجه إليه همم الرجال ، فلا يستغنى عنه في حال من الأحوال .

لابد للمرء من مال يعيش به — وداخل القبر محتاج إلى الكفن

بالمال تقضى الحاجات ، وتنال الرغبات ، وترد اللهفات ، وتضاعف الحسنات ، وتستجلب الدعوات، وتعمل الخيرات ، وترفع الدرجات ، فهو زينة الحياة ، وغاية الغايات .

شيئان لا تصلح الدنيا بغيرهما — المال تصلح منه الحال والولد

زين الحياة هما لو كان غيرهما — كان الكتاب به من ربنا يرد

والفقر – أعاذنا الله وإياكم منه – هو البلاء الأكبر ، والموت الأحمر:

إذا قل مال المرء قل حياؤه — وضاقت عليه أرضه وسماؤه

وأصبح لا يدري وإن كان حازماً — أقُدامه خير له أم وراؤه

كم صير العزيز ذليلا ، والشريف وضيعاً . وقد ورد " كاد الفقر أن يكون كفراً" و "ما ضرب العباد بسوط أوجع من الفقر " .

غالبت كل شديدة فغلبتها — والفقر غالبني فأصبح غالبي

إن أبده أفضح وإن لم أبده — أقتل فقُبح وجهه من صاحب

وفي الحديث الشريف "لا خير فيمن لا يحب المال ليصل به رحمه ، ويؤدي به أمانته ، ويستغني به عن خلق ربه " ومن كلام الإمام الثوري : المال في هذا الزمان عز للمؤمن . ومن كلامه أيضاً : المال سلاح المؤمن في هذا الزمان " .

"هذا قليل من كثير مما قيل في فضل المال وفوائده ومنافعه بالنظر للأفراد .

وأما بالنظر للأمة ففوائده أعظم وأجل ، وفقده أدهى وأمر . قال حكيم : لا دولة بغير رجال ، ولا رجال بغير مال ، ولا مال إلا بالعمارة . فالمال هو ميزان قوة الأمة ، وداعية مجدها واستقلالها ، خصوصا في هذا الزمان الذي أضحى مدار الأعمال فيه على المال . إذ بالمال تسد الثغور ، وتشاد القلاع .

بالمال تجمع الجموع وتحشد الجيوش وتبتاع العدد من أسلحة وذخائر . فالقوة كل القوة في المال ، ولا حياة للأمة بغير مال ، ولا وجود ، ولا استقلال " .

"و معلوم أن موارد الكسب ثلاثة : الزراعة ، والتجارة ، والصناعة . وقوامها كلها بالتوفير والاقتصاد . أي بإتقان أساليب الكسب والارتزاق وتوفير الثروة العمومية ، وإصلاح التجارة والزراعة والصناعة على الطرق التي يجري عليها الغربيون ، ورائد ذلك كله العلم الصحيح" .

ولكن جمع المال لا يجب أن يكون الهدف منه حفظه في الخزائن ، بل يجب أن يستغل في المشروعات التي تعود على الأمة بالنفع الجزيل . جاء في المقال المتقدم "ومن يحرز المال في صناديق الحديد ، ويمسكه عن كل مشروع مفيد ، وهو يرى بلاده تباع للدخلاء ، وأزمة ثروتها تتنازعها الغرباء ، وأبناءها منغمسين في الترف ، و بناءها على شفا جرف ، فهو الخاسر المغبون ، والخائن الملعون ، والأخرق المجنون . فالوطن الوطن أيها المصريون . جانبوا البطالة والكسل ، وأجيبوا داعي العلم و العمل . تعاونوا على البر والتقوى ، وتمسكوا من الحزم بالسبب الأقوى" .

والحقيقة إن المصريين لم يكونوا مقصرين ، فقد نشرت المقطم في (١٨-٤-١٨٩٦) خبرا هذا نصه "أحضر سعادة سيوفي باشا آلة لنسيج الأقمشة المعروفة بالبفتة ، وقد وضعت الآلة المذكورة في تفتيش مسطرد ، وجربت بحضور الجناب الخديوي ، وجمهور من كبار الموظفين ، فنجحت نجاحاً عظيماً " .

ولكن الإنجليز الذين كانوا يحاربون كل فكرة لإقامة الصناعات ضغطوا على الحكومة حتى أصدرت قانونا ينص على أن يحصل على الخيوط والمنسوجات والأقمشة وسائر المصنوعات القطنية المشغولة في القطر المصري ؛ رسم بحسب قيمتها ، يعادل رسم الجمرك الذي يحصل على المصنوعات المماثلة لها ، الواردة من الخارج . قالت صحيفة المقطم في (١٩-٤-١٩٠١) " أما الشكوى المادية فمن الأمر العالي الذي صدر بالأمس ناهيا عن إعفاء المعامل القطنية التي تنشأ في هذا القطر من

الدخولية أو الرسوم الجمركية ، حاتماً بمساواة مصنوعاتها بالمصنوعات الأجنبية المماثلة لها في ذلك الرسم" .

"فظاهر المراد من هذا الأمر العالي أن الحكومة تأبى أن تسهل على سكان بلادها إنشاء معامل لغزل القطن ونسجه ، مضارعة للمعامل الأجنبية ، وتميزها على غيرها حتى تسبقها في ميدان المباراة والمناظرة . ولما كان معظم المغزولات والمنسوجات القطنية تأتي هذا القطر من المعامل الانجليزية ، فالذي يتبادر إلى الذهن أن الحكومة المصرية حالت دون نجاح الصناعة المصرية حذرا من تعطيل المعامل الانجليزية" .

فلم يكن في طوق المصريين أن يتحركوا مع وجود الاحتلال الذي يضع الأغلال في أقدامهم و أيديهم ، والعراقيل أمامهم .

* * *

ومن الأدب الإرشادي قول حافظ إبراهيم :

أنابتـــة العصـــر إن الغريـــب ... مجـــد بمصـــر فـــلا تلعـــبي

يقولـــون في الـــنشء خـــير لنـــا ... ولـلـــنشء شـــر مـــن الأجنـــبي

أفي الأزبكيـــة مثـــوى البنـــين ... وبـــين المســـاجد مثـــوى الأب؟

وكـم ذا بمصـر مـن المضـحكات ... كمـا قـال فيهـا أبـو الطيـب

أمـــور تمـــر وعـــيش يمـــر ... ونحـــن مـــن اللهـــو في ملعـــب

وشـعب يفـر مـن الصـالحات ... فـرار السـليم مـن الأجـرب

وقـالوا دخيـل عليـه العفـا ... ء ونعـم الـدخيل علـى مـذهبي
رآنا نيامـا ولمـا نفـق ... فشـمر للسـعي والمكسـب
ومـاذا عليـه إذا فاتنـا ... ونحـن علـى العـيش لم نـدأب
ألفنـا الخمـول و ياليتنـا ... ألفنـا الخمـول ولم نكـذب

وهذا إرشاد عن طريق التوبيخ والتعنيف ، ليكون أوقع في النفس ، وأشد أثرا على السمع . فحافظ يخاطب الشبان ، ونفسه تفيض بالألم والحسرة ، لأنهم عاكفون على اللهو و اللعب ، بينما الأجانب يجدون في امتصاص ثروة البلاد . ويقول إن هؤلاء الأجانب ما شجعهم على ذلك إلا كون المصريين لأهين ساهين ، فلا لوم على الأجانب فيما يحصلون ، وإنما اللوم كل اللوم علينا نحن المصريين الذين أتحنا لهم الفرص . ويطلب من بني وطنه أن يستيقظوا من سباتهم ، وأن يلحقوا بالأجنبي في السعي المتواصل . قال :

عـار علـى ابـن النيـل سـباق الـورى ... مهمـا تقلـب دهـره أن يسـبقا
من رام وصل الشمس حاك خيوطها ... سـببا إلى آمالـه وتعلقـا

وقال حافظ من قصيدة :

وهـل في مصـر مفخـرة ... سـوى الألقـاب والرتـب ؟
وذي إرث يكـائرنا ... بمـا غـير مكتسـب
وفي الرومـي موعظـة ... لتعـب جـد في اللعـب
يقتلنـا بـلا قـود ... ولا ديـة ولا رهـب

ويمشـــــي نحـــــو رايتـــــه فتحميـــه مـــن العطـــب ؟

فقـــــل للفـــــاخرين أمـــــا لهـذا الفخـر مـن سـبب

أروني بيـــــــنكم رجـــــــلا ركينـــا واضـــع الحســـب

أروني نصـــــــف مخــــــترع أروني ربـــــع محتســـــب

أروني ناديا حفـــــــــــــلا بأهـــل الفضـــل و الأدب

ومـــــــاذا في مدارســــــكم مـــن التعلـــيم والكتـــب ؟

ومـــــــاذا في مســـــاجدكم مـــن التبيـــان والخطـــب ؟

ومـــــــاذا في صـــــــحائفكم سـوى التمويـه و الكـذب ؟

حصـــــائد ألســـــن جـــــرت إلى الـــويلات والحـــرب

فهبـــــوا مـــــن مراقـــــدكم فـإن الوقـت مـن ذهـب

فهـــــذي أمـــــة اليـــــابان جـــازت دارة الشــــهب

فهامـــــت بالعـــــلا شـــــغفا وهمنـــا بابنـــه العنـــب

في هذه القصيدة يبدو حافظا ساخطا على قومه ، ناقما عليهم إهمالهم وكسلهم و انصرافهم إلى اللهو و العبث . ولذلك أخذ يقرعهم ويعنفهم تعنيفا شديداً . ولم ير شيئا يعجبه ، لا في المدارس ، ولا في المساجد ، ولا في الصحف ، ولا في المجتمع بصفة عامة . ثم ضرب المثل بالرومي الذي يقدم من بلده خاوي لو فاض فيجد حتى يجمع ثروة طائلة . ثم أشار إلى نهضة اليابان وانتصارها في حربها ضد روسيا سنة ١٩٠٥ ، مما أثار إعجاب العالم بها . وتمنى لو أن مصر بلغت شأن اليابان ، ولكن كيف يتم مع وجود الاحتلال ؟

أما الإرشاد إلى طلب العلم ، وبيان مزايا الرجل المتعلم ، و المرأة المتعلمة ، والشعب المثقف ، فلم يتخلف عنه كاتب أو شاعر في العصر الذي ندرسه . قال أحمد شوقي ، مخاطبا سعد زغلول ناظر المعارف ، من قصيدة نظمها على لسان المطرية [١]سنة ١٩٠٧ .

يا ناشــر العلــم بهــذي الــبلاد	وفقـت ، نشر العلم مثل الجهاد
باني صــروح المجــد أنــت الــذي	تبــني بيــوت العلــم في كــل ناد
بالعلـم سـاد النـاس في عصـرهم	واخترقـوا السـبع الطبـاق الشـداد
أيطلـــب المجـــد ويبغـــي العـــلا	قـوم لسـوق العلـم فـيهم كسـاد

ونحن نعرف موقف المحتلين من موضوع نشر التعليم وإنشاء المدارس . فمثلا نجد كرومر [٢] يذكر في تقريره عن سنة ١٨٩١ " و ألغيت خمس مدارس تجهيزية لعدم وجود المدرسين " فكتب مصطفى كامل التلميذ بمدرسة الحقوق في المؤيد (١٠-١٠-١٨٩٢) تحت عنوان "اقتراح مفيد" "إن نظارة المعارف تدعي أن السبب في عدم إمكان التوسع في إنشاء المدارس هو قلة المال وقلة المعلمين . أما عن قلة المال فمن الممكن أن تفرض ضريبة على كل مصري ، قدرها قرشان في العام . وبذلك يمكن الحصول على ١٢ مليوناً من القروش ، تكفي لإنشاء ٢٨٠ مدرسة . أما

---

(١) الشوقيات ١٣٩/١

(٢) المقطم في ٤-٤-١٨٩٢

عن توفير المعلمين ، فمن الممكن أن تتوسع مدرسة دار العلوم في قبول التلاميذ ، ويمكن إنشاء مدرسة عليا لتخريج المعلمين "

ولكن سياسة المحتلين كانت تقضي بإبقاء الشعب في ظلمات الجهل ، ليسهل قيادة ولا يتطلع إلى الاستقلال . قال كرومر (1) في تقريره عن سنة ١٩٠٠ "من رأيي أن البلاد في حاجة إلى تكثير المدارس الصناعية . والمدارس التي أشير إليها ، وأرغب في أن أراها هي التي تعلم فيها القراءة والكتابة والحساب باللغة العربية ، مع الالتفات إلى الرياضة البدنية . ويكون الغرض الأهم منها تعليم الصنائع على حسب الأساليب الجديدة ، بشرط أن تكون بسيطة ، لا تقتضي آلات كثيرة "

" ومهما كان نوع التعليم ، ومهما كانت المدارس التي تنشأ له ، فلا بد من بذل الجهد لجعل التلاميذ يقومون بجانب من نفقات تعليمهم . إن التعليم المجاني يخرج من المدارس شبانا لو بقوا في الدرجات التي ولدوا فيها ، وتعلموا حرفة شريفة عملوا بها ، لرأوا أنفسهم أسعد حالا وأنفع لبلادهم من أن يتعلموا ولا يروا أمامهم سبيلا للمعيشة و الارتقاء إلا بالانتظام في خدمة الحكومة."

" ويسرني أن أقول إن نظارة المعارف العمومية رأت مضار التعليم المجاني وقد حاولت تلافيها منذ سنوات . ففي سنة ١٨٧٩ كان عدد الذين يتعلمون مجانا لا أقل من ٩٥% من التلامذة الذين يتعلمون في

---

(١) المقطم في ١٣-٥-١٩٠١

مدارس الحكومة . وفي السنة الماضية -١٨٨٩- كان عدد التلامذة الذين يدفعون أجور التعليم ٩٨% في المدارس الابتدائية ، ٨٦% في المدارس الثانوية . وأرجو أن يستمر هذا حتى يبطل التعليم المجاني تماما ، أو لا يبقى منه إلا شئ قليل. "

ولا يخفى ما في هذا التقرير من المغالطة المكشوفة . فقد كانت البلاد في أشد الحاجة إلى الأطباء البشريين و البيطريين ، و خريجي مدرسة الزراعة و المهندسخانة . وإذا كان التعليم المجاني ضارا ، فلماذا أخذت به الحكومات الأوروبية ؟ و المدارس الصناعية التي يرغب فيها كرومر ، هي التي تعلم النجارة و الحدادة و الصناعات الجلدية ، و لا شيء غير ذلك .

وقد ذكر في تقريره عن سنة ١٩٠٢ ، أن الأموال التي أنفقت على التعليم من بدء الاحتلال ١٨٨٢-١٩٠٢ بلغت ٥٤٧ ر ٨٢٢ ر ١ جنيه ، أو أقل من ١% من مجموع المصروفات العمومية .

لذلك كان موضوع التعليم موضوعاً حساسا عند الشعب ، و مسألة وطنية في الدرجة الأولى ، وعليها يتوقف مستقبل البلاد . فاهتم المفكرون والأدباء بالتحريض على إنشاء المدارس . وكان تقريع الأغنياء لتقاعسهم عن بذل المال في سبيل نشر العلم ، أحد الأهداف المهمة للأدب في العصر الترامي بنوع خاص . قال طه حسين[١] :

---

(١) مجلة الهداية ، عدد ديسمبر سنة ١٩١٠، وانظر طه حسين الشاعر الكاتب، للمؤلف ص ٧٧.

نرجو الرقي وكيف ترقى أمة سلكت سبيل التيه و الإضلال

عثت بحق الأمهات و أغفلت أمر الأمومة أيما إغفال

لم تربهن فكن مصدر شقوة فيها وداء للبنين عضال

ساد الذين عنوا بأمر نسائهم وسموا بهن إلى مكان عالي

أبى تكون الصالحات لأمة رغب الغني بها عن الإفضال

يحبي بيمناه النضار ولم يكد حتى يجود على الخنا بشمال

يمسي ويصبح في النعيم وقومه لم يظفروا من بحره ببلال

فالجهل منتشر تعيث شروره فينا وتفتك فتكة الأغوال

في كل آونة تمد حبالة فتصيد صرعى الفقر و الإمحال

لادر در المال إن لم يدخر لبناء مكرمة وحسن فعال

لادر در المال إن لم يدخر إلا لذات الطوق و الخلخال

أيجود تلميذ بدرهم يومه عن طيب نفس غير ذات ملال ؟

ويجود مضطر بقوت عياله جذلان لا يصغى إلى العذال

و الأغنياء على الملاهي عكف صرعى الملاحظ والهوى الختال

إني لأخشى أن تصير أمورنا إن دام بخلهمو لأسوأ حال

شبان مصر لكم أزف تحيتي و إلى حميتكم أسوق مقالي

يا ويح مصر من الزمان وصرفه إن لم تهموا همة الأبطال

أحيوا العلوم فلا حياة لأمة ألقت أزمتها إلى الجهال

رقوا النساء فلا حياة لأمة أمر النساء بها إلى الإهمال

أكد طه حسين في هذه القصيدة ضرورة العناية بتعليم البنات، وقال إن الأمة لا يمكن أن تتقدم ما دام نساؤها يعشن في ظلمات الجهالة. ثم حمل على الأغنياء حملة عنيفة ، لأنهم ينفقون بسخاء على إشباع شهواتهم، ويضنون على التعليم فلا يساعدون في نشره. وأخيرا خاطب الشباب، حاثا إياهم على التزود من الثقافة بحظ وافر حتى ينفعوا وطنهم الذي يعلق عليهم الآمال .

وقال نصر لوزا الأسيوطي [1]:

بالعلم قد علت الرجال إلى الذرى	وتسابقت لمواطن الأطيار
بالعلم ترتفع البلاد وترتقي	وتنال ما تبغى من الأوطار
أعلوا منار العلم فوق ربوعكم	فبه يكون لمصر خير منار
وامشوا إلى سبل العلا وتأكدوا	أن العلاء مطية الأحرار

وقال في الدعوة إلى تعليم البنات :

العلم فرض على الجنس اللطيف كما	قد صار فرضا على شبابنا النجب
الأم تحتاج علما يستضيء به	أبناؤها مثلما يحتاج خير أب
ربوا الفتاة تروا أما مؤدبة	تعلم الطفل ما يحلو من الكتب
لا خير في امرأة في البيت جاهلة	ولو غدت من بنات العز و الحسب

(١) الأدب القطبي قديما وحديثا ص ٣٢٩، طبع دار القومية العربية، سنة ١٩٦٢.

هذه أمثلة لما قيل عن ضرورة نشر العلم بين الجنسين . وقد اعتمد الشعب في هذه المرحلة على جهوده الذاتية، ففتحت المدارس على اختلاف أنواعها، وكان الفقراء يكافحون كفاحاً شديدا في سبيل تعليم أولادهم. وساعدت الجمعيات الخيرية الإسلامية والقبطية في ميدان التعليم مساعدة تذكر فتشكر. وهكذا أخذ الشعب يسير إلى الأمام بخطوات ثابتة على الرغم من المحتلين. وأدرك الجميع قيمة العلم وآمنوا بمزاياه. وعلى أكتاف الطلبة قامت ثورة ١٩١٩، وبجهودهم وصلنا إلى ما نحن عليه الآن.

الترام و الأدب الشعبي

لعب وجود الترام دورا هاما في الأدب الشعبي ، شعره و نثره . ولقي الأدباء فيه موضوعا جديدا فتسابقوا فيه . مثال ذلك قول أحدهم [١] .

يا تراموای الهلاك اشفق بحالنا	كفانا كفانا ما أصابنا من الأجانب
مش كفايه وبغير سبب تقتل وتزهق	الأبرياء في الفجاله آه ولا انت هايب
روح اقصد الظاهر و اهلك فيه شويه	تريحنا و يبقى له في البلوى نايب
و الا امشي بالليل فوق صور الجنينة	أهلك البطال وكل طفل سايب
ولا بالنهار حوم حول بنك الكريدي	تلتقي النسوان قاعده تجاهر بالمعايب

يبدو أن هذا الشاعر كان يسكن حي الفجالة ، فلذلك طلب من الترام أن يرحم أهل هذا الحي ، و أن ينقل شره إلى حي الظاهر ، أو حي الأزبكية .

أما حي الظاهر فقد كان يسكنه الأجانب في ذلك الوقت . و أما حي الأزبكية فقد كان مكتظا بأهل الفساد من كل نوع وجنس . ويبدو أن بعض النساء الساقطات كن يتخذن مكانهن المختار حول بنك الكريدي ، فتمنى الشاعر لو أن الترام توجه إلى هذا المكان ليقضي على ما فيه من الموبقات .

---

(١) مجلة الدنيا الجديدة في ٢٧-١٠-١٩٠٤.

وكثرت الأغاني التي يتحدث فيها العشاق إلى الترام ، و يطلبون منه أن ينطلق بهم إلى حيث يلتقون بمن يحبون من الفتيات الجميلات . مثال ذلك .

يا تــــــــرام العباســــــــية	وديــني علــى قصــر النيــل
خليـــــني اشـــوف حبيـــبي	الحلـــو أبـــو خـــد جميـــل
يا تــــــــرام العباســــــــية	اجـــــري كمـــــان شـــــوية
أفـــديك يا تـــرام بعنيـــه	وصـــــــلني للحبايـــــــب

النكات و الملح الترامية

كثرت النكات و الملح التي تدور حول الترام ، وبعضها يمثل سذاجة الركاب ، و بعضها يمثل تهربهم من دفع أجرة التذكرة . وبعضها يمثل ما يربحه أصحاب الحانات حينما أتاح الترام للناس فرصة السهر . وبعضها يمثل البيئة الترامية الماجنة . فمن ذلك .

- قال أحدهم لعبد [(١)] الحميد الموارديي . أخبرني كيف يسير الترامواي على القضبان ؟ فأجاب . دول معلقين فيه حمير من تحت .

(١) انظر مجلة الخلاعة من سنة ١٩٠٣-١٩٠٥.

- ركب عبدالحميد [1] المواردي تراموا اي الخليج عصر أمس، فطلب منه الكمساري ثمن التذكرة ، فقال له : أنا من محاسيب الجمعية الخيرية .

- نفخ الترامواي في صور الأزبكية، فأمطر غلمانا أثمرت بهم أرض لوط .

- تألف اليوم [3] وفد من الخواجة بولاكي ، وسبيرو ، وصاحب

التروكاديرو، قاصدين شركة الترامواي، يطلبون منها استمرار القطارات لغاية الصباح مدة موسم القطن، لسهولة المواصلات على الزبائن الكرام. فرفضت الشركة طلبهم رحمة منها بجيوب الأغنياء ، وإشفاقا بعقول الجهلاء .

- هرب الترامواي [2] إلى البحر الأحمر ليستريح أسبوعا من صدغ محرر الشرق .

- طلبت مصلحة (٣) الترامواي من الشيخ عيسى أن يكون مفتشاً على التذاكر فامتنع ، وطلب منها أن يكون مفتشاً على القضيب .

---

(١) انظر مجلة الخلاعة من سنة ١٩٠٣-١٩٠٥.

(٢) انظر مجلة الخلاعة من سنة ١٩٠٣ -١٩٠٥

- **تصادمرجلان أمام قهوة الشيشة ، فتسبب عن ذلك قطع شريط الترامواي ، وعطل الطريق نحو الخمس ساعات ، ونقل المتصادمان إلى المستشفى .**

- **الترامواي في قطر منه. يا سيدنا المدير، نظرة يا أمير للمفتشين و الهم التخين بيغازلوا الستات من داخل العربات .**

الأدب الشعبي في ظل البيئة الترامية

تناول الأدب الشعبي جميع الأغراض التي تناولها الأدب الفصيح . وقد راجت سوقه في هذا العصر نظرا لكثرة المجلات ، وتنوع الموضوعات التي عالجها بأسلوب ساخر ، و عبارات جريئة . فمما جاء في هذا الأدب وصفا لحياة المجتمع القاهري ، وما ظهر فيه من انحلال و فساد :

و في الزمن ده العشق أمرو كتر	والخبص زاد و البصبصة و الرفق [1]
ياما بنات أحرار تبيع عرضها	في حب هلفوت ندل مهما اتفق
تلقى مره مجوزه و عازبه	وكم رضيع صاحي نزل مرتفق
ودي أمور الشرح فيها يطول	وانت كمان واحد من العارفين

و هذه حكاية لما كانت تنشره الصحف من الفضائح الجنسية . و معنى هذه الأبيات أن العشق كثر كثرة هائلة في خلال العصر الذي ندرسه . وكان من الرجال من يعاشر النساء معاشرة زوجية دون عقد شرعي . فإذا حملت المرأة سفاحا ألقت بالوليد في البالوعة .

و مما جاء عن القمار[2] :

لعب القمار فينا اتقدم	و الأجنبي للسلب احتال

(١) الأرغول جـ ١٢، س٥، ص ١٩٠.

(٢) حمارة منيتي ع ٦ س ٣ سنة ١٨٩٩.

و الفقـــر فينـــا مـــتحكم ورېنـــا عـــالم بالحـــال

الشـــخص منـــا يكســـب لـــه قرشـــين يبعـــزقهم ضـــوغري

وبعـــدها يرجـــع عقلـــه و الـــدمع مـــن عينـــه يجـــري

يفضـــل علـــى بختـــه يجـــري وهـــو أصـــل اللـــي جـــرى لـــه

وتنـــه مـــن دهـــره يشـــكي و الـــدهر يا اخواننـــا مالـــه

احنـــا الســـبب في اللـــي جـــانا مـــن دي المصـــايب و الأحـــزان

مـــا حـــد غـــيرنا ودانا نلعـــب قمـــار عنـــد اليـــونان

الـــواد مـــن الأورام يجـــري علـــى بـــلادنا متشـــمر

وبالقمـــار يفضـــل يهـــري فينـــا و هيـــه بتـــدبر

وبعـــد مـــا كـــان متمســـكن يصـــبح خواجـــه ويتمظـــرط

ومـــن فلوســـنا يـــتمكن ويـــدور يهـــيص و يـــزأطط

يركـــب بقـــا ف العربيـــات ويـــنجعص جعصـــة قنصـــل

ويعـــيش مـــنعم باللـــذات غـــير متلاقيـــه ينهـــي و يفصـــل

هكذا كانت حالة المقامرين ، و هذه صورة مجسمة لمصيرهم المؤلم ، وهي صورة محزنة حقا . و قد وازن هذا الأديب الشعبي بين الأجنبي الذي يهاجر من بلاده لضيق ذات يده ، و يحل في مصر ، فيفتح ناديا للقمار فيقصد إليه المغفلون ، و بعد أن يفقدوا ثروتهم ، يندمون حيث لا ينفع الندم ، و يبكون حيث لا يجدي البكاء ، بينما الأجنبي قد اغتنى بعد فقر، وأصبح يسكن منزلا فخما ، و يركب العربات الفاخرة . و يتمتع بالنفوذ و الجاه .



الفهرس